رشا عباس

عشرة / حدعش

كيف تم اختراع اللّغة الألمانية

كيـــف تـم اختـــــراع اللّغــة الألمانيــة

رشا عباس

كيف تم اختراع اللّغة الألمانية

عن الكاتبة 8

تقديم 10

كيف تم اختراع اللّغة الألمانيّ 13

السّيّد مولر 19

كيف أصبحت فنّانةً 25

أريني المزيد من العنف 31

بديهي عزيزي شتيفان 37

قيامة الهيبستر 42

لا تقل «جوب سنتر» أبداً 51

هل تريد أن تصبح هكذا؟ 55

فيزا؟ 63

مخدّرات شمسيّة 68

تعلّم اللّغة في مدرسة الحياة 75

كيف ساعدتني ألعاب الفيديو في المعاملات البيرقراطية الألمانيّة؟ 83

تواصل اجتماعي يؤدي إلى الوحدة 88

مقترحاتٌ لتطوير مناهج الاندماج واللّغة الألمانيّة 92

كيف فشلت في محاولة ابتكار بطل خارق ألماني؟ 96

عـــن الكـــــــــــاتبـــــــة

رشا عباس، قاصة سورية مقيمة في برلين. صدر لها: «آدم يكره التلفزيون» عام ٢٠٠٨ م. عن منشورات «دمشق عاصمة الثقافة العربية»، ونشر كتاب: «كيف تم اختراع اللغة الألمانية»، بنسخته الألمانية عن دار «ميكروتكست» الألمانية عام ٢٠١٦ م.

تقـــــــــديـــــــــم

رشا، لدي عرض لعمل مؤقت في تدقيق بعض النصوص الأدبية، ستحصلين بموجبه على ٢٥٠ يورو مقابل تحرير كل نص، علماً أن واحدها لا يتجاوز ألف كلمة.

أوه ملاذ، يا له من عرض مغرٍ، لكن للأسف أنا منشغلة بتعلم اللغة الألمانية في هذه الأيام. ليتني فعلاً أستطيع قبول هذا العرض والتخلص من النظرات الازدرائية لموظف الجوب سنتر.

رشا.. رشا ربحت جائزة تتضمن تذكرة ذهاب إلى وإياب من هاواي، مع إقامة في فندق ٥ نجوم لأسبوع مدفوع التكاليف بما يشمل المساج اليومي ذا النهاية السعيدة، لا أستطيع الذهاب لأن مديري اللطيف في العمل رفض منحي إجازة، ما رأيك في الذهاب عوضاً عني؟

هاااااواي، أنا مشتاقة لذلك الجرم الملتهب ذي اللون الأصفر المائل للاحمرار بعض الشيء والذي كنت أراه في سماء الشرق الأوسط، ولكن يا ملاذ التزامك بالعمل يبدو رفاهية وترفاً بالمقارنة مع انشغالي بتعلم الألمانية، ليتني فعلاً أستطيع الذهاب..

* * *

الأمثلة السابقة لحوارات دارت مع رشا عباس عبر سكايب، كانت جزءاً من تشكيلة متنوعة أكبر تضمنت أيضاً المزيد من عروض العمل الدائم والجزئي،

ودعوات لورش عمل حول الأساليب الأمثل لإدماج اللاجئين في المجتمع المضيف عبر استخدام أجهزة من التراث كالكرسي الألماني، عدا عن ولائم البوفيه المفتوح والسترة تحت عناوين غامضة مثل «قراءات شعرية من سوريا»، وغيرها.

رشا عباس التي رفضت كل ما سبق بحجة انهماكها في اكتساب لغة جديدة، أخفت عني حينها أنها ذهبت إلى ما هو أبعد من مجرد الاستحواذ على اللغة، منصرفة إلى حدود البحث في جذور هذه اللغة بل وكيفية اختراعها.

بدءاً من محضر جلسة الدوقين لودفيغ وكارل وانتهاء بفشلها في ابتكار بطل ألماني خارق، تقودك رشا عباس برشاقة بارعة في رحلة مليئة بالمفارقات والمطبات، رحلة ستتماهى معها عزيزي القارئ سواء كنت أوروبياً يمينياً يرغب في إلقاء رشا وأمثالها في بحر إيجه، أو يسارياً برلينياً يرفع شعارات أيديولوجية أكل عليها الزمان وشرب، أو لاجئاً لا يلفظ أحد في محيطك الجديد حتى اسمك الأول بشكل صحيح، فيتحول، كما في حالة رشا التي أضحت راستا، من خليل إلى كليل!

رشا التي تصف نفسها بأنها ذات جهاز عصبي هش، تتجلى في قمة حيويتها وبراعتها، وهي تنقل بخفة وطلاوة لافتتين، تلك المصاعب والتفاصيل اليومية والهملة ربما التي تواجه مقتلعاً وهو يحاول أن يرسو من جديد على أرض ما تزال غريبة رغم أننا نعيش في زمن القرية الكونية.

قصص رشا وحكاياتها وألاعيبها هنا، آسرة وهزلية ومبهجة، لكنها ليست كذلك فقط، فهي قيّمة تمزج فيها السخرية بالاحتجاج على سوء الفهم، أو تستخدم السخرية وسيلة للاحتجاج. وكي لا أستهلك أكثر من صفحتين لتقديم الكتاب، سأتوقف هنا وأقول لك عزيزي القارئ: اقرأ على بركة الله.

ملاذ الزعبي
لندن، ١١ اغسطس ٢٠١٦

كيــف تم اخــتراع اللّغــة الألمانيّــة

سجّل عندك، محضر جلسة كلٍّ من السّيّدين المحترمين: الدّوق كارل والدّوق لودفيغ لاختراع اللّغة الألمانيّة.

بأيّة لغةٍ عليّ أن أكتب هذا، ما دمنا لم نخترع اللّغة بعد؟

بإنجليزيّةٍ محروفةٍ قليلاً.

حسناً، ولكن كيف لنظام الدّوقيّة أن يكون موجوداً رغم أنّنا في مرحلةٍ ليس لدينا فيها لغةٌ بعد؟

وهل صدّقت أنّك دوقٌ حقّاً؟ كلّ مافي الأمر أنّني وجدت أنّ لدينا فرصةً أكبر ليأخذنا النّاس على محمل الجد بألقابٍ كهذه.

طيّب. سبق وأن وضعنا بعض الكلمات في القاموس، لذلك ستكون هذه الجلسة للتّركيز على قواعد اللّغة الجديدة.

أقترح أن يكون لجنس كل كلمة دوراً هاماً، ومفصلاً رئيسيّاً في قواعد النّحو والإعراب. مؤثّراً على الأفعال والضّمائر وأدوات التّعريف.

لا مشكلة في مسألة الأجناس هذه. ولكن هل يمكننا أن نجعل الكلمات موحيةً بجنسها، على الأقل، حتّى يكون أمر دراسة اللّغة أسهل على الأجانب؟

«كلمات موحية بجنسها»؟ ماذا يعني ذلك أصلاً؟

يعني ذلك كلماتٍ تستطيع أن تحزر جنسها بنفسك. مثلاً التّفّاحة. تبدو التّفّاحة مؤنّثةً. ذلك واضحٌ. القمر مؤنّثٌ.

ولكن، ألست مرهف الحسّ يا دوق كارل؟ في الواقع لديّ عدّة اعتراضاتٍ على ما تفضّلت به للتّوّ. أوّلاً، نحن الآن على وشك ابتداع مسألة أجناس الكلمات، لذلك يفترض بك ألّا تكون واعياً لهذه المسألة بعد إلّا من باب الهرطقات وعلوم الغيب. أخشى أنّ تصرّفاتك تجعل هذه الجلسة برمّتها تبدو كخطأٍ دراميّ.

من ناحيةٍ أخرى، لا أرى سبباً لنجعل شاغلنا فقط تسهيل المهمّة على الدّارسين. هل أبدو لك كمكتبٍ سياحيٍّ؟ انظر إليّ الآن فعلاً أيها المحترم وقلّ لي، هل أبدو كمكتبٍ سياحيٍّ في نظرك؟ هل لأنّني أرتدي باروكةً؟ حسناً، في الواقع أرى أن نفعل العكس، ونتقصّد الإيحاء بأجناسٍ مضلّلة. من أجل خاطرك فقط، سأجعل التّفّاحة تحديداً مذكّرةً.

لا أفهم سبب هذا التّشنّج يا دوق لودفيغ، هل أنت عدوٌّ للمرأة يا حضرة المحترم؟

كلّا يا حضرة المحترم، ولكن يفترض أنّنا في وقتٍ لم يظهر فيه الوعي النّسويّ بعد، لذلك أنا مضّطرٌّ للتّصرّف على هذا النّحو. خذ مثالاً آخرَ لزيادة إرباك الدّارسين المناكيد: الفتاة ستكون حياديّة الجنس وليست مؤنثةً.

حيادي الجنس؟ هل سنضيف جنساً ثالثاً؟ لم أذكر أننا اتفقنا على ذلك. ما الفائدة من هذا؟

هل تريد للغتنا أن تصبح مثل الإنجليزيّة؟ حيث يتمّ التّعامل مع الطاولة قواعدياً كما يعامل الطّفل والكلب دون أيّة تفرقةٍ بينهم؟ أتريد لغة عمياء، لا ترى خصائص وأبعاد الأشياء، يا دوق كارل؟

لهذا السّبب اقترحنا فكرة الأجناس لأن تكون اللّغة حسّاسةً قدر المستطاع لكل المفردات. لتكن لنهايات الصفات أيضاً محددات مختلفة تعتمد على

جنس الموصوف، موقعه الإعرابي وما إذا كان نكرة أم معرفة أم بلا أداة تعريفٍ أصلاً. وليؤثر في ذلك أيضاً إذا كان مثبتاً أم منفياً. مفرداً أم مجموعاً.

بالحديث عن الإنجليزيّة، كنت أريد أن ألفت نظرك إلى أنّ المعجم الذي سبق وأعددناه من قبل بات مليئاً بالكلمات التي تبدو تحريفاً مضحكاً للإنجليزيّة.

نكّرني من فضلك، تاريخيّاً، هل يفترض أنّ الألمانيّة ستكون مصدرا للإنجليزيّة أم أنّ العكس هو الصحيح؟

لا أعرف، نحن في فترةٍ زمنيةٍ غير محدّدةٍ.

إذاً يجب حلُّ الموضوع. من الآن وصاعداً يتمُّ تحريف الكلمات عن الإنجليزيّة بشكلٍ أكثر إضحاكاً ليظهر أنّنا نسخر منهم. مثلاً كيف يمكن أن تقلب كلمة حليب «milk»؟

لا أعرف حقيقةً، «Molk» ربما؟

لا لا، بل: «Milch». تخيّل: ميلش، يا للطّرافة.

ليس الأمر مضحكاً.

بلى، ولكنّك لا تتمتّع بحسّ الدّعابة، لست حسّاساً لما هو طريفٌ، هذا كلُّ ما في الأمر. ماذا لدينا بعد ذلك؟

علينا تسمية الحيوانات.

لقد اقترب وقت استراحة العصريّة وقد تعبنا اليوم. هذا سببٌ كافٍ حتّى لا نهدر الوقت في تسمية كلّ حيوانٍ على حدة. دعنا نستخدم في تسمية الحيوانات قاعدةً تشبه تلك الخاصّة بتشكيل الألوان.

ماذا يعني ذلك؟

مثلما هو الحال مع مزج الألوان الأساسيّة لتشكيل بقيّة الألوان المتنوّعة، سنطبّق ذلك على مسألة الحيوانات، ونختار بضعة حيوانات أساسيّة، أمّا البقيّة فتكون أسماؤها عبارةً عن تركيب أسماءِ هذه الحيوانات الأساسيّة مع بعضها البعض. مثلاً، هل اخترنا اسماً للفأر؟ عندما تصل إلى الخفّاش ستحتار طبعاً فيم تسمّيه وستأتي إليّ لتضيع وقتي على ذلك. في هذه الحالة سمِّ الخفّاش فأراً طائراً وانتهينا. اسحب هذه القاعدة على كلِّ حيوانٍ يربكك.

لكن هنالك بعض الكلمات الجديدة التي تحتاج إلى اختراع.

لا، لا داعي لذلك البتّة، فتّش عن مجموعاتٍ من الكلمات السّابقة التي اخترعناها وامزج كلمتين، ثلاثاً، أو حتّى أربعاً في كلمةٍ واحدةٍ.

وفي هذه الحالة على ماذا نعتمد في تمييز جنس هذه الكلمة المركّبة النّاتجة؟ هل نختار الكلمة الأولى؟

بالطّبع لا يا حضرة المحترم، هذا سهلٌ ولا يليق بلغةٍ عظيمة، لا نريد الاحتمال المتوقّع. بل ليكن جنس الكلمة المركّبة من جنس الكلمة الأخيرة.

بخصوص تصريف الأفعال الذي اقترحناه في المرّة الماضية، هل هو صالحٌ للأفعال كلّها؟

طبعاً لا. أسرع لاختراع عشرات الأفعال الشّاذة التي لا يحكمها أيّ قانونٍ وأضفها للقائمة. ولا تنسَ أن تؤكّد على ضرورة فصل الأفعال المركّبة إلى قسمين، تتم بعثرتهما ليكتبا بطريقةٍ في منتصف الجملة وبطريقةٍ أخرى في آخرها.

حسناً. بالمناسبة هل لك أن تبقى قليلاً قبل أن تذهب، هنالك أمرٌ أخيرٌ علينا أن نعمل بشأنه.

ما هو؟ ولماذا تحمل هذه البطاقة الصغيرة في يدك؟

كتبت ثلاثة أدواتٍ للتعريف، اقترحتها بحسب الأجناس التي ابتدعناها.

ثلاثة؟ آهٍ كم أنت بسيطٌ ومستسهلٌ يا عزيزي الدّوق. اذهب واجلب من على مكتبي رزمةً من الأوراق الكبيرة واتبعني إلى غرفة الجلوس. هذا الجزء الخاصّ بأدوات التّعريف بالتّحديد سنعمل عليه مطوّلاً ومطوّلاً جدّاً بعد الاستراحة، وارم هذه الورقة الصغيرة المضحكة. هذا التّفصيل بالتّحديد سنتفنّن فيه لنضمن تدمير معنويّات أيّ دارسٍ مغرورٍ للّغة بشكلٍ كامل. هل تفكّر بما أفكّر به؟

بأنّ نجعل أدوات التّعريف إذا ما تمّت قراءتها بشكلٍ مقلوبٍ تقول الجملة التّالية: «لن تحلم بتعلّم هذه اللّغة أيّها الأجنبيّ الأحمق»؟

يا إلهي، من أيّة جبلةٍ رائعةٍ خلق الإنسان! لقد جعلت منك شيطاناً أليس كذلك؟ جلّ ما كنت أفكّر فيه هو أن نقلب أدوات التّعريف المؤنّثة إلى مذكّرة بحسب الموقع الإعرابيّ لأزيد ارتباك الدّارسين. بدأت أشعر أنّنا سنشكّل فريقاً جيّداً يا دوق كارل.

هذا بديهيٌّ حضرةَ المحترم.

السّـــــــــيّد مولـــــــــــــر

أشكرك سيّدي. في الحقيقة، لم أكن أتصوّر أن أجد سكناً بخس الثّمن إلى هذه الدّرجة في برلين، أتطلّع قُدماً لرؤية الغرفة.

ماذا أستطيع أن أقول؟ في الماضي كان المكان جنّةً حقيقيّةً للباحثين عن فرصة، الآن بات الأمر جحيماً مطلقاً لأولئك الطلبة والفنانين الباحثين عن مكانٍ للسكن هنا.

نعم، كم أنت محقٌّ سيّد مولر، لطالما سمعتُ بذلك. هل أستطيع أن أناديكَ ليودولف؟

لا.

لم أصدّق عينيّ يا سيّد مولر حين رأيت الإعلان واستطعت تبيّن السّعر بصعوبةٍ بالغةٍ في قلب كلّ تلك العبارات الغامضة بالألمانيّة. أرى أنّ لغتك الإنجليزيّة جيّدة، لم لا تضع الإعلان باللّغتين، ألن يكون ذلك أفضل لجذب المزيد من الراغبين؟

لا.

أشعر بالتّعب بعض الشّيء، هذه السّلالم تبدو وكأنّها لا تنتهي، سوى أنّني أشعر بالدّوار قليلاً من السّفر من قلب برلين إلى هذا المكان. في الحقيقة، بدّلت ثلاثة قطاراتٍ كي أصل إلى هنا.

تعرفين يا عزيزتي راستا...

رشا.

نعم، قلتِ لي من قبل أنك من روسيا.

كلّا، في الواقع... أو أيّاً يكن، أنت محق.

ألست روسيةً يا راستا؟

بلى، لكن ليس تماماً. أصل العائلة من غروزني، لذلك ترى لدي ملامح semi شرق أوسطية.

حسناً يا راستا. في الواقع، المكان بعيدٌ قليلاً عن قلب برلين، ولكنّك تعرفين أنّ أيّة غرفةٍ في قلب المدينة ستكون مضاعفة الأجر دون ميّزاتٍ حقيقية.

أعرف. لا مشكلة، أنا معتادةٌ على الظروف الصعبة. نمرةٌ حقيقةٌ أنا يا عزيزي السّيد مولر.

هنالك في الحقيقة طريقة تستطيعين بها اختصار الوقت بسهولةٍ إلى ساعتين ونصف، إذا تمكّنت من استخدام المواصلات بشكلٍ صحيحٍ دون الاعتماد على الوسائل التّقليدية.

مذهل، كيف لي أن أفعل ذلك؟

حسناً في البداية يتوجّب عليك أخذ ميترو الـ «U7» من محطّة القطارات، ثم عليك استبداله بعد إحدى عشرة محطّة بالـ «S13»، هنا تصيرين على ضفاف البحيرة، حيث تستقلّين السّفينة، وفي الطرف المقابل ستكون المنطقة جدباء قليلاً، لذلك ستجدين صفّاً من الفيلة التّابعة لإدارة المواصلات وتستقلّين أحدها ببطاقة الباص ذاتها. بعد ذلك ستتمكّنين من عبور جدولٍ صغيرٍ سباحةً، ومن ثم تأخذين «S44» مجددا قبل أن تستقلّي

غواصةً نريّة إلى المحطّة التي تليها، حيث تأخذين باص المسافات الطويلة وتسيرين بعده لمسافة سبع كيلومترات إلى هنا.

سأحرص على تدوين ذلك، ممتع.

آه سيّد مولر، أشعر بغثيانٍ مفاجئ، هل هنالك رائحة نفّاذة في هذا المبنى؟

ستعتادين على ذلك، وهذا يعني أنّنا قد اقتربنا من الغرفة. أحياناً ما يسيء بعض المستأجرين التّصرّف هنا.

القوّادون النّكرات.

البعض يرجع مخموراً إلى الغرفة، ولا يطيق الانتظار حتّى يصل إلى سريره.

مفهوم مفهوم.

ثم إنّ بعض الجرذان قد تجد صعوبةً في الخروج من فجواتها الجدارية، فتموت من البرد والجوع وتتعفّن في الدّاخل. أرجو ألّا يكون لديك أيّة مشكلة في ذلك؟

لا لا، ولم قد يعترض المرء على أمرٍ كهذا سيّد مولر؟

ذلك رائع يا راستا، والآن هذه هي الغرفة، ولكن انتظري هنا حتّى أدخل وأفتحها بعد قفزةٍ صغيرة إلى الشّرفة.

هل أضعت المفتاح يا سيّد مولر؟

كان يوجد مفتاحٌ في الماضي، ولكنّ إحدى المستأجرات ظنّته عضواً ذكرياً بعد إحدى حفلات الحفل هنا. أظنّ أنّها كانت منتشيةً بشدةٍ من الهيروين. الذي حصل أنّها اختفت مع المفتاح بعد ذلك ولم نجدها. أخشى أن تكون قد توفّيت، فقد لاحظت ازدياد قوة الرائحة. في البداية ظنّنا أنّه جرذٌ آخرُ ولكن... مابك يا راستا؟ هل تريدين قول شيء؟

في الواقع لدي بعض الأسئلة تعقيباً على ما ذكرت، ليست انتقاداً أو انتقاصاً من المكان، ولكنّه مجرّد فضول. لكن لا بأس، أظنّ أنّني لا أريد معرفة الإجابات الحقيقية عن أسئلتي.

في النّهاية لم أهتم كثيراً بشأن المفتاح، فقد كان لا يعمل جيّداً على كلّ حال، ولكنّ بقية المستأجرين يستطيعون فتح غرفتكم أيضاً بمفاتيحهم، فاطلبي المساعدة منهم دون تهيّبٍ أو خجل.

سيّد مولر، هناك شخصٌ يبدو مريضاً في هذه الغرفة.

لا لا، هذا لويجي زميلك في الغرفة. قل مرحباً للآنسة راستا يا لويجي. أوه لا تبدو بمزاجٍ جيدٍ اليوم. لا تخشي شيئاً يا راستا فهو إيطالي طيب القلب للغاية، ولكنّ لونه تحول إلى الأخضر مؤخراً بعد ابتلاعه لكمياتٍ كبيرةٍ من طلاء الجدران، وبات يزمجر على الدّوام من آلام معدته. كان منظّراً فنّياً مهمّاً في السّبعينيات ولكنّك تعرفين طبعاً، كم هو العالم قاسٍ مع الفنانين.

سيّد مولر هناك شخصٌ يتناول ذراعه قرب النّافذة.

أوه هذا هو مُرات، ستستمتعين بصحبته للغاية. هو مصمّم ألعاب فيديو تركيٌّ قديم، ولكنّه حسّاس قليلاً إزاء الانتقادات، فحاولي إبداء رأيٍ إيجابيٍ باللعبة التي يصممها حالياً. لا تعلّقي على الصّورة المشوّشة والموسيقى المزعجة، فهو يحاول إيصال رسالة من خلالها.

وماهي هذه الرسالة؟

حسناً، مُرات أتاتوركٌي مرّ، وهو حزينٌ قليلاً بشأن الوضع السّياسي الراهن في بلاده، وقد عكف منذ سنواتٍ على برمجة لعبةٍ يقوم فيها كمال أتاتورك بالتهام أردوغاناتٍ صغار والدوس عليهم. على كلٍّ، ستتعرّفين أكثر على بقية زملائك في الغرفة أثناء الحفل اليومي للمحفل، وهي فرصة مناسبة لتتوزعوا الأدوار في النّوم على المرتبة الموجودة واستخدام البطانية.

لا بأس، أستطيع النّوم على الأرض. هذه المرتبة، لا أعرف، تتحرّك، أو ربما تبدو متحفّزة.

لا تنسي جلب الأوراق المطلوبة لتوقيع العقد: جواز سفرٍ صالحٍ، سجلٌّ ضريبي مسجّل، ورقة الشّوفا[1] المصدّقة، دفتر سجِّل عائليٍ، إجازةٌ بالعمل، أوراقُ دوام الجامعة، سجلُّ علاماتك المدرسية وتواريخ التّبرّع بالدم منذ ولادتك.

سيّد مولر.

نعم عزيزتي راستا.

هل تظنّ أنّ السّيد لويجي سيمانع إن شاركته تناول علب الطلاء؟

لا أعرف حقيقةً، عليك اكتشاف ذلك بنفسك فهو ليس حسن المزاج دائماً، ولكن لا تقلقي، فأنا أعرف أنّك كروسيةٍ غريبةُ الأطوار قليلاً. مع ذلك أرجو أن تلتزمي بحُسن آداب الاستئجار. هل قلتِ أنّك من غروزني في الأصل؟

نعم، سيّد مولر، قلت ذلك بالفعل.

1 ورقة الشوفا [Schufa] هي ورقة براءة ذمّة في ألمانيا.

كيـــــف أصبحـــــت فنّانـــــةً

لم أكن أخطّط في الواقع لأن أصبح فنانةً، ذلك كلّه كان ضربة حظٍّ، يشبه أن تبحث على الإنترنت عن نصائح للتّخلص من رائحة الفم الكريهة، ولكنّك تضغط بالخطأ على رابط صفحة ويكيبيديا الخاصة بالملك هنري الخامس، ثم يدفعك الفضول وحده لقراءة القليل عنه، رغم أنّ اهتمامك بالتاريخ لا يتعدّى معرفة اسم جدّك الثاني. يصادف ذلك، في اليوم التّالي، أن تكون جزءاً من جلسة أصدقاءٍ، حيث يذكر أحدهم الملك هنري ويكون الشّخص الذي أنت معجبٌ به وتلاحقه حاضراً في الجلسة ويقول فجأةً: «ربّاه، لقد بقيت عازباً لوقتٍ طويلٍ محتفظاً بعذريّتي بانتظار أن ألتقي شخصاً من أولئك الذين يعرفون الكثير عن هنري الخامس ومن ذوي رائحة الفم العطرة، هذا أمرٌ يحسم كلَّ شيءٍ بالنّسبة لي». نعم، ما حدث لي كان مشابهاً لذلك.

كل ما كنت أريده هو أن أتعلّم الألمانيّة بشكلٍ جيّدٍ. معظم دارسي هذه اللّغة يشتكون بشكلٍ أساسيٍّ من موضوع الأجناس (التذكير والتأنيث وعديم الجنس) الموجود في اللّغة. في البداية استخفيّت بهذه الصّعوبة إذ أنّ لدينا الشّيء نفسه في العربيّة (دون صنف عديم الجنس)، ولكنّني سرعان ما صدمت، حيث فوجئت بأنّ الكلمات المذكّرة والمؤنّثة في الألمانية تختلف عما هو موجود في العربيّة، وكنت أظنّ أنّ لذلك قاعدةً عاليةً تشبه حقائق الفيزياء.

عدت لأهوّن الموضوع على نفسي بتقليل أهميّة ذلك، ثم ما هذه التّصنيفات الجندرية الصّارمة في عام ٢٠١٦؟ لا أؤمن بذلك ولا أظنّ أنّ تجاهل هذه التقسيمات سيكون ذا أثرٍ كبيرٍ لدى تعلّم لغةٍ حضارية، وبإمكاني التّركيز على بقية القواعد ومن ثم أحفظ هذه الأجناس رويداً رويداً. ما حدث هو أنّني تخلّيت عن هذه النّظرية تماماً في الدّرس الثالث أو الرابع، فقد ظهرت استحالة

دراسة اللغة بمعزل عن الأجناس. لم يكن هنالك من حيلةٍ سوى جلب أوراق رسمٍ كبيرةٍ وتعليقها على حائط الغرفة ومن ثمّ رسم صورةٍ تمثيليّةٍ لكلّ كلمةٍ أتعلّمها بحيث يكون جنسها واضحاً.

هكذا امتلأ حائط الغرفة برسوماتٍ منحرفةٍ تتضمّن برتقالاً ذا أثداءٍ، وحَساءً يلتهم حبوب منع الحمل الطّازجة، أو تفاحةً لها شاربان وسمكاتٍ بأعضاءٍ ذكريّةٍ وقطاراً هو نفسه عضو ذكري صريح. تضمّنت الرّسومات أيضاً أطفالاً ذكوراً برأسين، أحدهما مؤنثٌ والآخر مذكّرٌ، أمّا باقي كلمات الجنس المحايد فلم أعرف كيف أرسمها بشكلٍ واضحٍ، لذلك حشرتها في زاويةٍ واحدةٍ وصرت أتمرّن على حفظها بأن أقف كلَّ يومٍ وأصرخ في وجهها بعبارات تمييزٍ جنسيٍّ غير متحضّرةٍ: «ثم ماذا أيّها الكتاب، عليك اختيار جنسٍ ما، هل تريد أن يلحق بك الصبية في الطريق مردّدين مأثور أبي نوّاس: «من كفّ ذات حرٍ في زي ذي ذكرٍ. لها محبّان لوطيٌ وزنّاء». لن أبدأ بذكر الخبز والماء، هويتكما الجنسيّة الملتبسة تثير اشمئزازي. هل تريدون أن يظنّ أحدٌ أنّكما نسوة؟ يا حيف. ربّاه لا أعرف كيف وصلتما إلى هنا واجترحتما اختبار سفينة سيّدنا نوح الدقيق.»

في الواقع، كانت هذه التّمارين لتمرّ على خير ما يرام لولا أنّني كنت أقوم بها قرب النّافذة، مما أثار انتباه أحد جيراني الأناركيّين، وقام بإبلاغ السّلطات عن كوني أتفوّه بـ«خطاب كراهيةٍ» وأثار ذلك احتقاراً كبيراً لي في الحيّ.

ابتعت ستائر سميكةً للنّافذة وظللت فترةً أتجنّب النّزول إلى الشّارع إلّا للأمور الضرورية. كان يمكن أن تكون عزلتي هذه قاسيةً لولا أنّ جاراً متديناً كان يمرّر لي سلالاً ملأى بالطّعام خلسةً، ويدسّ لي فيها قصاصات تعبّر عن تضامنه معي وعن كوننا أصحاب قضيةٍ واحدة.

لم تمنعني هذه الحادثة المؤلمة من نشر نظريّتي في تعلّم أجناس الكلمات، إذ بلغت بي الوقاحة حدّ محاولة إيجاد فلسفةٍ وتفسيرٍ فرويديٍّ لكلّ كلمةٍ والاستعراض بذلك أمام زملائي في الصّف: «الليمونة مؤنّثة وضوحاً، فهي مصابة بعقدة الخصاء ببساطة، ألا تلاحظ كيف ترمق قضيب الشاي بنظرات الحسد؟ السّمك مذكّر، ألا تلاحظ أنّه يحب أمّه؟ السّكّر مذّكّر أيضاً، طبعاً في مجتمعٍ بطريركيّ كلُّ شيءٍ حلو المذاق ويحتاجه الجسم بكثرة يجب أن يكون مذكّراً، متوقّع جداً».

لم أكن أظنّ أنّ هذه النّزهات التي جمعتها من أحاديث رفاقي، ستتجاوز دائرة زملائي في الصفّ، ولكن حدث أن نقلت إحدى الزميلات لمدير صالة فنيّة تعنى بالفن الحديث، ما شاهدته من لوحاتٍ في منزلي مع فلسفة أجناس الكلمات الخاصة بي. تحمّس الرجل للفكرة وجاء في زيارةٍ إلى منزلي ليعاين الرّسومات بنفسه.

لم أعرف كيف تطوّرت الأحداث بسرعةٍ بعد ذلك، وجدت نفسي فجأةً في الكثير من الاجتماعات التي يحمل فيها النّاس كؤوساً من النبيذ ويتناولون معجّناتٍ صغيرةٍ من صوانٍ فضيّةٍ، وهم يثرثرون وخلفهم لوحاتٌ معلّقةٌ على الجدران من بينها رسوماتي. أحدٌ ما كان دائماً يتبرّع بتحليل الدّلالات اللّغويّة الجنسيّة المهمّة في رسوماتي نيابةً عنّي، لذلك كنت أكتفي بحشر قطع البيتزا الصغيرة في فمي وأبقيه مغلقاً طيلة الوقت، كي لا يسألني أحدٌ عن تفسيري لما أقوم برسمه. كانت هذه السّياسة جيدةً إذ صار معروفاً عنّي أنّني من ذلك النّمط من الفنّانين قليلي الكلام ومحبّي الصمت والعزلة، واشتهرت أكثر.

في الواقع لم يكن ينافسني في الشّهرة سوى فنّانة كوريّة اسمها هي جين «Hye-jin» والتي تقوم برسم بورتريهات لوجوه النّاس، حصراً في اللّحظة التي يتلقّون فيها مجاملاتٍ كاذبةٍ على الإنستغرام تحت صور مواليدهم الجدد. كنت أراقب هي جين جيّداً وهي تحشر قطع السّوشي في فمها وترفض الكلام أيضاً، بينما يقوم أحدٌ آخرُ بشرح لوحاتها على أنّها ثورةٌ ضدَّ الزّيف والنّفاق في المجتمعات الاستهلاكية الحديثة في ظلّ ثورة الاتصالات الرّقمية. لابدّ أنّها تتعلّم اللغة الألمانية أيضاً. لا يمكن أن أدع ذلك يمرّ. لا يمكن أن أدع هي جين تمثّل هذا الدّور لتسرق منّي سمعة الفنّان الكئيب المنعزل العميق، ذئب البراري. ترصّدتها مرّةً في معرضٍ مشتركٍ لنا، ثم حاصرتها في زاويةٍ مظلمةٍ كانت تختبئ فيها وحاولت استفزازها والصّراخ عليها لتتكلّم أو على الأقل لتضع عينها في عيني وتنكشف أمام الجميع، ولكنّها أصيبت بنوبة انهيارٍ عصبيٍّ وسارع الجميع لتهدئتها، بينما كان وكيلها الفنيّ يوبّخني لأنّني تصرفت دون مسؤوليةٍ وأخفتها دون أن أراعي كونها متوحّدة. (إذاً هي لا تتعلم الألمانية).

بعد ذلك جاءت مرحلةٌ حاسمةٌ، إذ لم يكن من الممكن أن أعيش على أجاد رسوماتي تلك للأبد، وقد بدأت حماسة النّاس تخبو تجاه الفكرة. في الوقت

نفسه كنت قد بدأت أعتاد على معيشة الفنانين ولم أعد قادرةً على إيجاد عملٍ حقيقيٍّ. أنام في الثّامنة صباحاً وأستيقظ في الخامسة بعد الظّهر. أذهب إلى الحفلات وأكثر من الشّرب وأعيش على الدّيون لأتمكّن من دفع إيجار الشّقة وتكاليف الحفلات وشراء أشياء عديمة الفائدة بشكلٍ مطلق ككلّ المبدعين. بالمناسبة اكتشفت أنّ لهذه الأغراض عديمة الفائدة ركناً خاصّاً في السّوبرماركات، هناك تستطيع إيجاد أداةٍ خاصةٍ لنزع الرّأس الأخضر لحبّات الفريز مثلاً، أو أداةٍ لتجويف حبّات الكيوي ومسحةٍ خاصّةٍ للأسطح الخشبية المصنوعة من شجر المطّاط.

كان من المهمّ أن أتصرّف بسرعة لأحافظ على مستوى معيشتي، أن آتي بفكرة مشروع فنّي لا يقلّ نجاحاً عن العرض الماضي، وقد أتاني عرضٌ، في هذه الفترة، يتضمّن فرصة لمنحةٍ تدعم مشروع إنستاليشن أستطيع القيام به. لم تكن لديَّ أيّة فكرةٍ عن كيفيّة إعداد معرض إنستاليشن، ولكنّني فور قراءتي، في إيميل المنحة، للسّطر الخاصّ بالمبلغ الذي يمكن لي أن أحصل عليه كتبت: «نعم موافقة وسأطلعكم على التّفاصيل لاحقاً». ذهبت لاستشارة إحدى قريباتي وهي فنّانةٌ مشهورةٌ، وطلبت منها أن تعلّمني كيفيّة إعداد شيءٍ كهذا، وكيف يمكن أن أحوّل فكرةً إلى معرضٍ وأجد لها معادلاتٍ بصريةً. سخرت قريبتي من هذا الاقتراح للغاية وأفهمتني أنّ الإنستاليشن لا يعدّ بهذه الطّريقة. ذهبنا إلى كاراج سيّاراتٍ قديمٍ فارغٍ بعد أن طالبتني بالحصول على نصف مبلغ المنحة، وبدأنا نعمل فيه وفقاً لتعليماتها. بعد أن انتهينا، كان ما يتواجد لدينا هو دولابٌ كبيرٌ، أشبه بنسخةٍ عملاقةٍ عن دولاب بارلو يركض فيه هامستر. عند المدخل تدبّرت قريبتي وضع طاولةٍ كبيرةٍ عليها أكوابٌ من القهوة.

بعد ذلك، عندما بدأ الزّوار يتوافدون بدأنا نعطيهم أكواب القهوة ومن ثمّ نجعلهم يركضون في الدّولاب. لم تكتف قريبتي بذلك، بل كانت قد استأجرت مثلاً يرمي عليهم كراتٍ مملوءةً بالسّوائل الملوّنة، ومن ثم بدأ بجلدهم. في ما بعد، عندما بدأ الصحفيون يسألونها عن معنى هذا المعرض، كانت لديها الجرأة الكافية لترتجل كمّاً لا متناهياً من الجمل التي لا تعني أيّ شيءٍ على الإطلاق: «عجلة الإنتاج الفيزيائي في توازٍ مع محفّزات السّوق والاستهلاك. الرّأسمال التّرفيهي

الذي يدسّ السّمَّ في البهجة. نحن عبيدٌ يا ليلى». ولكنّ ثقتها والطّريقة المتكلّفة التي كانت تتكلّم بها كانت توحي بأنّها في لحظةٍ تاريخيّةٍ تتلو مانيفستو تيّارٍ فنيٍّ جذريٍّ سيغيّر كلَّ شيءٍ. تمكّنا من الحصول على المنحة في كلٍّ الأحوال ونال معرض (عجلة الإنتاج) بعض الشّهرة، ولكنّ هي جين كسحتنا مجدّداً بإطلاقها، في التّوقيت نفسه، معرض إنستاليشن خطف كلّ الأضواء، وهو عبارةٌ عن مسجّلةٍ تصدر صوت صرصار الحقل كلّما تفوّه أحدهم برأيٍ سياسيٍّ غبيٍّ.

أريـــــني المزيـــــــد مـن العنـــــف

حسناً، الأمر ليس أنّ روايتك سيّئة، وأرجو ألّا تأخذي الأمر بشكلٍ شخصيٍّ. أنا آسفٌ جدّاً ولكنّني لا أستطيع نشر شيءٍ كهذا.

ولكن، ما المشكلة فيها؟ هل أستطيع على الأقلّ أن أحصل على رأيٍ لأتمكّن من تحريرها مجدداً؟ لقد قضيت أربع سنواتٍ وأنا أعمل عليها.

لا أظن أنّ ذلك ممكنٌ، أعتذر. لا تشعري بالإحباط فهذا مجرّد رأيٍ. ولكن في الواقع لو قمت بغمس مؤخّرتي في محبرةٍ، ومن ثم جلست على كومة أوراقٍ فارغةٍ، لنتج عملٌ أدبيٌّ أكثر جدارةً من هذه الرّواية. لا يعني ذلك بالضرورة أنّك يجب أن تبحثي عن مهنةٍ أخرى مثل التقاط أوراق الأشجار أو التصوير الفوتوجرافي، ولكن هو فقط مجرّد رأيٍ.

أوه.

صدّقيني، لولا أنّك غالية عليّ لما أكملت القراءة بعد الصّفحة الأولى، ثمّ... فريدة... فريدة، أليست صديقتك؟

بلى.

كي لا أظلمك وأتجنّى عليك برأيي، أعطيتها الرواية علّها تبدي أيّ رأيٍ فيها. بعد أن قرأتها قالت أنّها لم تتقيّأ بهذا الشّكل منذ خمس سنواتٍ. كان ذلك حين جرّبت المطعم الياباني في الحيّ والذي أغلقته البلديّة لأسبابٍ تتعلّق بالنظافة.

لم تخبرني.

ساعة ونصف، ساعة كاملة ونصف السّاعة ظلّت تتقيّأ دون توقّفٍ. مع ذلك أردت أن أمنحك فرصةً أخرى.

السّيد أنطون، أليس قريبك وصديق المرحوم والدك؟

صحيح.

عندما أرسلت للسيّد أنطون خطوط الرّواية لآخذ رأيه أرسل لي تهديداً بخطف أولادي من المدرسة إذا ما عدت وأرسلت له قذاراتٍ كهذه مرة أخرى. مجدّداً أتمنى ألّا تأخذي الأمر بشكلٍ شخصيٍّ.

لا، لم آخذه كذلك.

انظري عبر النّافذة، هل ترين هذا الولد الذّاهب إلى مدرسته؟

وصلت الفكرة، لا أريد أن أعرف رأيه أيضاً.

لا، في الواقع أردت أن أشير إلى أنّه يبدو نحيلاً جدّاً، كأنّه مصابٌ بسوء تغذية. المهم، أتمنّى ألّا يكون حديثنا قد أزعجك. أتمنى لك التّوفيق في نشر الرواية لدى ناشرٍ آخرَ.

حسناً ولكن، ألم تجد أمراً إيجابيّاً واحداً في الرّواية؟

ولكن بالطّبع يا عزيزتي، آخر ما أريدك أن تظنيه هو أنّني، لا سمح اللّه، أقول أنّ الرّواية عبارةٌ عن خراءٍ محض. هنالك أمرٌ وجدته، أنا شخصيّاً، ملهماً ومثيراً للإعجاب ألا وهو الجرأة. أنت تتمتّعين بجرأةٍ لافتةٍ دون شك.

نعم، أستطيع أن أقول أنّني هشّمت الكثير من التّابوهات في الرّواية.

تابو؟ ألست متفائلة قليلاً؟ أُقصد جرأتك على إخراج عملٍ منحطٍّ كهذا إلى العلن والرغبة في نشره. ذلك أمرٌ في غاية الجرأة. ربّاه، ألا يقوم أهل هذا الولد بإطعامه أبداً؟ أستطيع رؤية مفاصله بوضوحٍ من هنا.

هنالك شيء لا أفهمه. كنت أظن أنّ هذا بالضبط هو المطلوب. أعني، لقد وضعت كلَّ شيءٍ في الرواية. كلُّ شيء. تجرّأت على المقدّسات الدّينية، حتّى إنّ بطلة الرّواية الثائرة على قيود المجتمع تقول لوالدها المتديّن في أحد المقاطع: «هل لك أن تأخذ نبيك وتضعه في...».

نعم نعم أتذكّر، لا داعي لتكرار ذلك.

تجرّأت كذلك على المحظور الجنسيّ في الثّقافة العربيّة. ألم تلاحظ كيف تصرخ البطلة في وجه بشاعة العالم قائلةً: «أريد أن يكون لي قضيبٌ أضاجع به العالم؟».

نعم لاحظت. كم هو مبهجٌ هذا.

كذلك تحمل الرّواية إدانةً صريحةً للديكتاتوريات وفيها ثقلٌ سياسيٌّ بيّنٌ. حبيب البطلة مثلاً يقول في مونولوجه الأوّل: «لن يخضرّ العشب تحت أحذية العسكر». ماذا تبقى إذاً؟ الثّالوث المحرم كلّه بات في جيبي الصغير، الإشارة إلى الذكوريّة في المجتمع العربي موجودةٌ، حيث تعاني البطلة من تسلّط أبيها وأخيها وشوارب محمود الفوّال عليها. حتّى الثّورة السّورية جلبتها إلى الحفل، رغم أنّ ذلك أنهكني لأجد لها مكاناً بين الجميع. في الرواية عباراتٌ أراهن أنّها ستُرفع في مظاهرات الشبّان السوريين الأحرار في المستقبل. اضطررت لاختلاق شخصية زوج عمة حبيب البطلة وهو مهرّبٌ للّاجئين، خفيف الظلّ يضحّي بحياته في النّهاية لإنقاذ اللّاجئين على القارب. وجعلت الشّخصية الشّريرة في الرّواية عنصر أمنٍ، وهي إشارة رمزية تختصر الواقع. البطل الوسيم ناشطٌ في الثّورة وهنالك أربعة فصولٍ كاملةٍ لرحلته في المعتقل، حيث يتمكّن البطل من ملامسة الإنسان في السّجان. من أجل الإثارة هنالك أيضاً تهريب آثارٍ يقوم به مسؤولٌ متنفّذٌ، وجريمةٌ مثيرةٌ حيث يتمُّ العثور على عشيقة المسؤول مقتولةً في

البانيو. هنالك كلُّ شيءٍ. كلُّ شيءٍ موجودٌ في الرّواية. كلُّ شيءٍ يجعلني أستطيع بيعها للأجانب، وتأتي أنت لتقول لي الآن أنّك لا تريد ترجمتها ونشرها؟

حسناً، هنالك ما يجب أن أخبركِ عنه إذاً، ثمّة سوء تفاهمٍ كما يبدو. نحن الآن في العام ٢٠١٦. برناجٌ حافلٌ كهذا الذي جمعته في الرّواية، كان يصلح قبل سنواتٍ من الآن. الآن لدينا رفوفٌ ممتلئةٌ بروايات عربيّةٍ مترجمةٍ، وعلى الأغلفة صور عيونٍ خائفةٍ لامرأةٍ منقبةٍ وأشياءَ كهذه. ٩٩٪ من هذه الرّوايات كسرت المحظورات التي تحدثت عنها. لم يعد أحدٌ يريد أن يقرأ ذلك الآن.

ماذا عليّ أن أفعل إذاً؟ ماذا أهشّم بالضبط؟

ماذا عن زيارةٍ للدّولة الإسلامية؟ الموضوع رائجٌ الآن، ومن الممكن أن أتدبّر بشكلٍ جيّدٍ التّرويج لكتابٍ يحكي يومياتك في إحدى المناطق التّابعة لسيطرة (تنظيم الدّولة) ويتناول تفاصيل علاقتك مع أحد المقاتلين.

ذلك لن يحدث أبداً. قد أكون وحيدةً ولكنّني لست يائسةً بعد إلى الدّرجة التي تدفعني إلى مضاجعة الدّواعش. لن يحدث ذلك طالما يمنحني تطبيق تندر «Tinder» بعض الأمل.

في هذه الحالة بقي أمامنا شيءٌ واحدٌ. من الواضح أنّك غير قادرةٍ على إعطائي شيئاً أستطيع ترويجه بشكلٍ تجاريٍّ مضمون، فلنحاول على الأقل أن نخرج بشيءٍ يرضي الدّوائر الأكثر تكلّفاً ونخبويّةً وربّما نشارك به في السابقات الأدبية.

لقد تحدّثنا في الموضوع من قبل. لن أكتب روايةً عن جلال الدّين الرومي.

لا لا، أفكّر في شيءٍ آخرَ. هل تستطيعين أن تكتبي بعض العنف؟ ها هو مجّداً! عظام هذا الولد أدقُّ من خيوط سترينجات زوجتي. لا أصدّق ذلك. المهم، هل تستطيعين أن تكتبي لنا شيئاً عنيفاً؟

نعم، نعم، أستطيع طبعاً. أنا عنيفة جدّاً من الدّاخل.

حسناً، في الواقع يبدو أنّ ذلك رائجٌ كثيراً هذه الأيّام. نستطيع أن نضع ذلك في سياق كونك لاجئةً وخرّيجة حربٍ وما شابه ذلك، لنقول أنّ ذلك ينعكس في لغة عنيفة. إلى أيّ مدى تستطيعين أن تصلي؟

أستطيع... أستطيع أن أمارس الضّرب المبرّح بحقّ إحدى الشّخصيات.

ملّ، ماذا أيضاً؟

إحدى الشّخصيات تأكل لحوم البشر، لا أعرف. تشتهي الجثث أيضاً... تمارس الجنس مع الجثث وتأكلها.

لا بأس، ولكن ما زلنا دون المستوى المطلوب.

المزيد من الجثث، لنقل: مقبرةٌ جماعيةٌ، وكذلك أورجي في المقبرة تقوم به طائفةٌ منحرفةٌ تؤمن أن أكل الآخرين هو تقديرٌ لهم.

لا أعرف ما يزال الأمر غير مرضٍ. أتفه مسلسل جريمةٍ حديثٍ يتضمّن ذلك. أريد المزيد المزيد من العنف.

ماذا لو جعلنا أفراد الطّائفة يحفّون أظافرهم على قطعةٍ من المخمل، أمام أشخاصٍ قاموا مسبقاً بخطفهم كي يتعذّبوا، ثم يصوّرن ذلك ويضعونه على مواقع الإنترنت المحظورة؟

يا للقسوة، بدأنا نقترب ولكنّني لا أزال غير راضٍ تماماً. أريني أكثر. هل تظنّين أنّ سبب نحول هذا الولد سوء امتصاصٍ أم سوء تغذيةٍ وإهمال الأهل؟

تريد أن ترى أكثر؟

نعم، نعم... لكن لماذا تقومين بإقفال الباب؟ ثم هل ارتديت هذه القفّازات للتوّ؟

بديهـــي عزيـــزي شــــــــتيفان

ياللمضاجعة، رتابة الحياة تكاد تصيب حواسي بالصّدأ. بصراحة، لا يستطيع المرء النّوم باطمئنانٍ إذا كانت

الإنسانية مهددةً بالحرمان من مواهبي. عندما غادرت لندن متجهاً إلى برلين لأتحدّى نفسي وأتبرّع بحل قضايا جديدةٍ في مكانٍ آخرَ (وكذلك بسبب ارتفاع أجارات المنازل في لندن)، كنت أظنّ أنّ القضايا المشوّقة ستنهال عليّ منذ لحظة وصولي، ولكن لا، كلُّ ما حصلت عليه هو دعوة جاري التّركيّ للتوسّط في قضيته مع ساكن الطّابق السّفلي الألمانيّ المسنّ، الذي يضرب بعصا مكنسته سقف المنزل كلّما قام أطفال التّركي بإصدار ضوضاءٍ ويهدّد باستدعاء الشّرطة. بانتظار القضيّة الجنائيّة المعقّدة التي ستعيد لي شهرتي، على الأقل، عليّ أن أمرّن عضلاتي الذّهنية في اكتشاف ما يستقرّ خلف التّفاصيل. نزلت إلى الشّارع ووقفت بانتظار فريسة، وحتى لا أنتظر كثيراً أخرجت علبة السّجائر من جيبي ولوّحت بها قليلاً فظهر أمامي على الفور شابٌّ يطلب سيجارة. أخرجت واحدةً بتمهّلٍ من العلبة وأنا أتفحّص ذلك الشّاب دون أن يشعر.

بالطّبع، تفضّل.

شكراً.

ربّما يتوجّب عليّ أن أعطيك واحدةً أخرى. أليس كذلك؟

لا شكرا، واحدة تكفي.

ولكن يا شتيفان، صديقتك التي تنتظرك في الشّقة تبدو بحالةٍ سيّئةٍ دون أن تدخن، وربما كانت هذه السّيجارة التي تأخذها فرصةً طيّبةً للصّلح بعد أن تشاجرتما شجاراً عنيفاً اليوم. رغم أنّ لا مشكلة لديها في إدمانك على المخدّرات ولا في تنقّل موهبتك وخطط حياتك مراراً بين الموسيقى والتّصوير الفوتوجرافي والفيجوال آرت وفشلك الذّريع في كلّ منها، حتّى موضوع إيجاد مكانٍ لائقٍ للسّكن ليس هو المزعج. الموضوع مرتبطٌ بصحبتك النّسائية القلقة كما أظن.

هل التقينا من قبل؟ كيف عرفتَ كلَّ هذه التّفاصيل؟

ابتسمتُ هنا بغموضٍ من تحت قبّعتي وقلت:

هل سمعت عن شيرلوك هولز من قبل يا شتيفان؟

لا.

حسناً – استأنفت بامتعاض – لست بالغ العبقريّة ولكنّني أثق بالتّفاصيل يا شتيفان. التّفاصيل التي تهملونها أنتم طيلة الوقت ولا تدركون كم هي فاضحة. ربما هي تفاصيل صغيرة لا يراها أحدٌ بسهولة ولكنّ عيني باتت مدربة على التقاطها.

أيّة تفاصيل هذه التي قادتك لمعرفة كلّ هذه المعلومات أيّها الرجل الغريب ذو اللّهجة الإنجليزيّة الطريفة؟

حسناً، البلطة المغروزة في رأسك مع الدّم المنهمر حتّى الآن، كانت مفتاحاً لا بأس به لأخمّن أنّك خارجٌ من شجارٍ حديثاً.

ياللعبقرية، لا أصدّق، لم يكن أحدٌ لينتبه إلى ذلك.

ثم أنّ وجود قفّازين ورديّي اللّون مسكين بالبلطة كان الدّليل الذي قادني إلى أنّ الشّجار كان مع امرأةٍ تقطن معك في الشّقة، إذ لا يمكن لإنسانٍ عاقلٍ أن يتجوّل بهذه القفّازات علناً حتّى لو كنّا في برلين. هناك حدود يا شتيفانو.

وماذا عن المخدرات؟

حسناً، بنظرةٍ متفحّصةٍ إلى الجزء الأسفل من وجهك، تحت الأنف تقريباً، لاحظت أنّه مغطّى بالكامل بالكوكايين الذي سهوتَ عن مسحه قبل أن تخرج. كذلك هنالك تفصيلٌ صغيرٌ خفيٌّ التقطته عيني الدّقيقة على الفور، وهو حقنة الكوكايين التي ما تزال عالقة في رقبتك، وطابع (LSD) الذي يتدلى من لسانك كلما فتحت فمك لتتحدث. افترضت أن هذه الأشياء ليست عديمة الدّلالة.

مذهل، وكيف تمكّنت من معرفة اسمي.

هذا كان صعباً بعض الشّيء، ولكنّي، وبوساطة التّحديق الدّقيق، اكتشفت أنّ قبّعتك تحمل عبارة: «أنا اسمي شتيفان الأحمق».

صحيح، صحيحٌ تماماً. هذه القبّعة هديّةٌ من حبيبتي أعطتني إياها حين كانت غاضبةً مني، هي تغضب كثيراً لكنها طيّبة القلب. يا لدقة اللاحظة، ولكن ماذا عن مشكلة السّكن ومشاريع حياتي الفنيّة؟

أوه، هذا كان الجزء الأسهل من صنع الفطيرة.

يالها من عبارةٍ بليغةٍ تجمع بين أناقة الحسّ البريطانيِ في الحديث، وروح المطبخ الإيطاليّ. ذلك أمرٌ متعدّدُ الثقافات بحقّ.

نعم، جاذبيّتي سهلةُ الملاحظة. ولكن لاحظت أنّك في العشرينيّات من عمرك وتعيش في برلين، وبقي عليّ أن أملأ الفراغات فقط.

نعم، نعم، ذلك مذهلٌ حقّاً، بقي أمرٌ واحدٌ فقط.

وماهو يا عزيزي شتيفان؟

كيف عرفت أن المشاكل مرتبطةٌ بالغيرة؟

تنهّدت وأمسكت شتيفان من كتفيه وأدرت وجهه نحو إشارة المرور المقابلة:

بديهي عزيزي شتيفان، أنت شابٌّ وسيمٌ، وفي العشرينيات من العمر وتقطن في برلين. هل تعرف عدد الآنسات العازبات في هذه المدينة؟ هل ترى ذلك الغبار القادم من ذلك الشّارع المقابل؟ إنّهن قادراتٌ على شمّ رائحتك يا شتيفان. إنّهن يعثرن عليك كما تعثر برغوثةٌ على إنسانٍ بدمٍ حارٍّ بين أغراض الغرفة في الليل، ورفيقتك ليست غافلةً عن ذلك. إنّهنّ قادماتٌ يا شتيفان. قادماتٌ بأسنانهنّ الجائعة المشرّعة لنهش شبابك الغضّ. سيمزّقنك كما تمزّق أسماك البيرانا الأمازونية خروفاً غارقاً في أقلّ من دقيقة. لقد أحسسن بوجودك يا شتيفان.

يا إلهي، صوت الفحيح بات أكثر قرباً. ماذا عليّ أن أفعل!

اهرب من هذا المكان يا شتيفان، اهرب يا شتيفان.

قيامـــــة الهيبســـــــــــــتر

كوننا أبناء ثقافة مولعة بالاستعداد للأزمات، فقد أكسبنا ذلك الخبرة في ملاحظة أيّ مؤشّرٍ على اقتراب الخطر. في الواقع هذه مبالغة، فملاحظة أنّ شيئاً ما ليس على ما يرام في هذه الفترة، في برلين، لم تكن تتطلب الكثير من النّباهة أو أيّة خلفيةٍ معرفيةٍ.

بدأ الأمر حين بتّ ألاحظ أنّ عدد النّاس في الشّوارع يقلُّ أكثرَ فأكثر. ظننت في البداية أنّ ذلك عائدٌ لبرد ديسمبر القارس، ولكن بعد أيّامٍ بدأت المقاهي والبارات تقفل أبوابها بشكلٍ مفاجئ. ساورني حينها شكٌّ بأنّ حرباً حقيقيةً ستجري هنا قريباً، وكان هنالك مكانٌ واحدٌ فقط أستطيع من خلاله التأكّد من شكّي هذا.

سارعت إلى أقرب مركزٍ تجاريٍّ لأقطع الشكّ باليقين. أدركت فور وصولي، ونزولي على السّلّم المتحرّك إلى الطابق الأرضي، أنّ ظنّيَّ في محلّه: بدا طابور النّاس المصطفين أمام الكاشيرات والمحمّلين بأغراض التّسوّق ممتدّاً كثعبان إلى خارج أبواب المول. دون أن أتردّد لحظةً واحدةً، هرعت ملتحقةً بطوابير النّاس متخيّلةً ما كان لأمّي أن تفعله في لحظةٍ كهذه.

عندما كانت تتردد في البلد أيّة إشاعةٍ، سواء أكانت حول حربٍ محتملةٍ مع الإسرائيليّين أو عقوباتٍ أمريكيّة أو ازديادٍ في أسعار النّفط، أو حتّى لو كانت الإشاعة تتناول رسوب أحد أبناء حافظ، أو طلاق الفنّان فكرت طوشكا أو ارتفاع معدّلات الانتحار في السويد، اعتادت أمي أن تسرع لتحتاط للأزمة مهما كانت.

كان السلوك الوقائي هذا يتمثّل بشراء ربطات الخبز وكميّاتٍ هائلةٍ من الطّحين والعدس والبرغل، وكل المواد التي من الممكن حفظها لفتراتٍ طويلةٍ. طبعاً، بعد انقضاء مدة صلاحية الإشاعة، لا يحدث شيءٌ سوى أنّنا نعاقب بتناول الخبز البائت وشوربة العدس على مدى أسابيع لئلّا تذهب المؤونة سدى.

حين دخلت إلى السّوبّرماركت، فكّرت فوراً في الطريقة الأمثل لتوظيف خبرتي السّابقة في الاستعداد للأزمات، مع مزجها بلمسات من المدرسة الألمانيّة. لذلك، وإلى جانب أكياس الطّحين التي لم أكن أعرف حقيقةً ماذا سأفعل بها، بدأت برمي كلّ ما تصل إليه يداي في السّلّة: المعلّبات التي تتضمّن وجباتٍ مقابل سبعين سنت للعلبة، أكياس أرزٍّ كبيرةٍ، قوارير زيت الزّيتون. وابتعدت عن اللّحوم وعن كلّ ما يمكن أن يفسد قبل نهاية الحرب المحيقة.

تمكّنت بصعوبةٍ من شقّ طريقي في ازدحام النّاس، الذين كانوا قد بدأوا يتصرّفون بعدوانيةٍ بسبب التّوتر والشعور بالخطر. دفعت ثمن أغراضي بعد أن كانت موظّفة الصندوق قد انهارت باكية قبل أن أصل إليها بسبب ضغط العمل. في طريقي إلى المنزل، رأيت رجلاً متشرّداً في الشّارع يردّد وهو يترنح في مشيته: «اليوم الموعود قد اقترب، نهاية العالم على بعد خطوة، إنّهم قادمون، إنّهم قادمون».

عدت إلى المنزل وخطر لي أنّني سأنجو من القادم بشكلٍ أفضل مع وجود شركاءٍ. اتّصلت بصديقتي تولا طالبة منها القدوم. سألتني إذا ما كان هنالك شيءٌ خطيرٌ. قلت لها أنّني لا أستطيع التّحدث على الهاتف. عندما أتت شرحت لها ما يحصل من حولنا في المدينة، نظراً لكونها غائبة طوال الوقت عن الوعي بسبب تدخين الحشيش: إغلاق المتاجر والمقاهي والبارات، خلوّ الشّوارع من النّاس، هجوم النّاس على مراكز التّسوق. كلُّ هذا لا يمكن له إلا أن يعني شيئاً واضحاً لكلّ عين خبيرة: اقتراب قيامة الهيبستر[2].

2 «هيبستر» مصطلح يطلق على ثقافة شبابية تنتشر بين النخب الاقتصادية في المجتمع الاستهلاكي، تركز على بدائل للثقافة السائدة بدون أن تخرج عن المجتمع، حيث تبحث عن الخلاص من "إفلاس" ثقافة العامة عبر البحث عن هوية مختلفة، تقدمية في الطابع وتستمد شرعية و شعبية، مثلا من استرجاع موضات قديمة للبس بقوالب معاصرة ومن فلسفات جديدة للأكل كالنباتية، و الاستماع لأنواع غير سائدة من الموسيقا. سياسيا يميل الهيبسترز عادة لمفاهيم تقدمية وتضامنية كمحاربة العنصرية وتهميش الأقليات.

سمعنا صوت تفجيراتٍ في الخارج ومن ثمّ نباحاً عالياً لكلاب الدينة. ذلك طبيعيٌّ، إذ أنّ الكلاب تستشعر دائماً الأخطار قبل وقوعها. مادامت الأمور قد وصلت إلى هذا الحدّ بعد أن قرعت طبول الحرب، كان علينا أن نجد طرقاً لصنع أسلحةٍ للمقاومة باستخدام القليل المتبقي من الأشياء في المنزل.

بدأنا ندرّع البيت كي نتمكّن من الاحتماء به حين تبدأ الغزوة. قمنا بملء الباب الخارجي بملصقاتٍ تنهل فكرياً من إعلانات الخمسينيّات الأمريكية الذكورية، لتشتيت انتباههم وردعهم إذا ما هاجموا المنزل، ريثما نقوم بإعداد أسلحتنا. أحد هذه الملصقات كان يحمل رسم امرأةٍ مستلقيةٍ بجانب حذاءٍ مع جملة: «ضعها حيث تستحق». يفترض أنه، بطريقة ما، إعلانٌ للأحذية الرجاليّة.

بدأ الصّياح يعلو في الطرقات وازداد توتّرنا ونحن نقلّب كلَّ الأغراض في المنزل بحثاً عمّا يمكننا استخدامه كسلاح. للأسف كانت خبرتنا في هذا المجال لا تتعدّى مشاهدة أفلام مصّاصي الدّماء والزومبيز، فحاولنا أن ننسخ على منوال الأسلحة المستخدمة في هذه الأفلام أسلحةً خاصّةً بنا. وجدت صديقتي لحسن الحظّ في سلّة القمامة عبوات ماكدونالدز، فبدأنا نقصّها ونلصقها لتصبح بمثابة عصا كرتونيةٍ تغمد في قلب الهيبستر إذا ما هاجمنا، أو على الأقل تشعره بالشقاء لدى مشاهدتها. كان علينا بعد ذلك أن نجد بديلاً مناسباً عن الماء المقدّس لنرشّ به الهاجمين. فكّرنا طويلاً ماذا يمكن أن نستخدم في هذه الحالة. ثمّ وجدت صديقتي الحلَّ بأن نستخدم الماء المترسّب في عبوات اللّحم الموضوعةِ في البرّاد، لاستهداف نقطة ضعف مهاجمينا الذين سيكونون نباتيين بالتأكيد، وفعلاً بدأنا نعبّئ هذا الماء في عبوات الرّش المستخدمة للنّباتات.

على اعتبار أنّ أحداً لم يهاجمنا بعد، كان لدينا الوقت لنجري تعديلاتٍ إضافيّةً في المنزل حتّى يكون مضاداً للهيبستر بشكلٍ جيد.

بدأت صديقتي تعلّق أفخاذ الخنزير والأغنام المجففة كزينةٍ في سقف المنزل، ورحت أنا أطبع وألصق بوستراتٍ معاديةً للأجانب واللّاجئين في كلّ أنحاء المنزل. أصبنا بعد ذلك بحماسٍ جنونيٍّ فجأة فصرنا لا نكتفي ببوستراتٍ مأخوذةٍ عن حركة بيغيدا أو باقتباساتٍ لدونالد ترامب مع صوره، بل أردنا أن نضيف لمستنا الخاصة، فبدأنا نصمّم ونطبع شعاراتٍ متطرّفةً عديمةَ المعنى من قبيل:

«يا إلهي كم أحبّ الفاشية» و«الرّايخ الثالث يمشي الهوينا» و«اليمين المتطرّف يزهر في قلبي» و«للبنوك سحرها الذي لا يقاوم».

بقي أن نضيف تفصيلاً صغيراً، وهو وضع موسيقى بوب في المنزل. جلست مع تولا على الأريكة ونحن ننتظر أن يحدث شيءٌ ما. لم يقم أحدٌ باقتحام البيت وبقينا هكذا لساعةٍ نحدّق في اللّاشيء ونحن نستمع إلى الأغاني التي اختارتها تولا.

هل هؤلاء هم «إن سينك»؟

إحم، نعم.

حقاً تولا؟

نعم، أحتفظ ببعض تسجيلاتهم حتّى الآن من باب السّخرية فقط.

عندما ألقينا نظرةً من النّافذة، كانت مظاهر الهدوء مازالت تعمُّ المدينة. لا أحد في الطّرقات المعتمة، ولكنّ أصوات التفجيرات ما زالت مسموعةً بوضوح. قرّرنا أن نستسلم في النّهاية ونطفئ الأضواء ونذهب للنّوم. فجأةً سمعنا طرقاتٍ خفيفةً على الباب. تبادلنا النّظرات في حيرةٍ من أمرنا ثم هرعنا إلى الباب. هل من الممكن أنّ هذا هو السّتايل الخاصّ بقيامة الهيبتسر؟ ولكن بالطّبع، فهم لن يقتحموا المنزل مثل الزومبيز صارخين: «أدمغة». لا بدَّ أنّ لهم أسلوباً خاصاً بهم لبداية المعركة. وللحقّ، فإنّ طرق الباب بتهذيبٍ في الغزوات هو لأمرٌ غير تقليديٌّ ولايخلو من إبداع.

ألصقنا وجهينا على الباب محاولين أن نسمع أيّ شيّءٍ. لا صوت يسمع. بعد مشاوراتٍ طويلةٍ قرّرنا أن نفتح الباب لعلّ الطارق أحدٌ ما من السّكان يريد أن يناقش معنا أمر التّحضيرات اللّازمة لمواجهة قيامة الهيبستر، أو يريد إخبارنا عن ملاجئَ في الطّابق السّفلي. شققنا الباب قليلاً لنتبيّن امرأتين موضّبتي الشّعر في تسريحة جدائلٍ تقليدية، وترتديان فساتين شتويةً قديمة الطّراز

مع جواربَ سميكةٍ وأحذيةً جلديةً عديمةَ الشّكل. همسَت لي تولا من خلف ظهري أن أحذر جيّداً فيما أقوله لأنهم يبدون من الهيبستر، وربما يجب أن نراوغ في البداية، محاولين إقناعهم بأنّنا منهم ريثما نعرف ما هي خطّتهم. راقت لي الفكرة فاستجمعت شجاعتي، وسارعت بإلقاء التّحية على الامرأتين المبتسمتين الواقفتين أمام الباب: «فلتباركما الظروف الموضوعية».

همست تولا في أذني: «ماهذا الهراء؟»، فقلت لها: «لا أعرف، بدت لي مناسبةً كتحيةً هيبسترية». بدا على الامرأتين الارتباك عندما سمعتا التّحية، ثم قالت لي إحداهنّ مبتسمة: «شكراً حبيبتي، في الحقيقة وجدت أنّنا غير مشمولتين بلائحة الممنوعين من دخول منزلكم، فأحببنا أن نستغلّ الفرصة ونأتي لنتحدّث إليكم في أمرٍ يهمّنا».

قالت ذلك وهي تشير إلى باب البيت، حيث كانت تولا قد علّقت لائحةً إضافيّةً، إلى جانب صور إعلانات الخمسينيّات المستفزّة من باب الحرب النّفسية. اللّائحة المشار إليها كانت تقول: «إذا كنت مهاجراً، مسلماً، يهودياً، أسودَ، فقيراً، يساريّاً، نباتيّاً، أو فيجان فلا تطرق هذا الباب». يا إلهي كم تحب تولا المبالغة.

قالت السّيدة الثانية بشكلٍ خارجٍ عن السّياق: «لماذا تظنين أنّ الشّر موجودٌ على الأرض؟».

ابتسمتُ لها ابتسامةً متشنّجةً وطلبت منها أن تعذرني لحظة، وعدت لأشاور تولا بهذا الشّأن:

الوضع غير مُطمئنٍ، هل لك أن تجلبي ماء اللّحم ورحْ الماكدونالدز من المطبخ؟

أوك، أمّا أنت فاستمري بمناورتهم وإيهامهم في هذه اللّحظة أنّك منهم.

عدت إلى السّيدة محاولةً أن أجترح جواباً ذكياً على سؤالها، ثم قلت لها بعد أن اعتمدت ردّاً مثالياً حاولت أن أغلّفه بنكهةٍ أدبيةٍ رومانسية:

وهل يسأل القتيل إن كان يعرف قاتله؟ بالطّبع أعرف. لا تصالح. الشّرّ موجود على الأرض بسبب الإمبريالية العالمية.

نظرت السّيدتان لبعضهما باستغراب، ثم عادت الأولى للحديث: ولكن، لم تظنين أنّ الربّ يسمح بوجود الشّرور على الأرض رغم أنّه عادلٌ؟

بدأ العرق يتصبّب من جبيني وأنا أتلفّت إلى الخلف. لم تعد تولا من المطبخ بعد، ولابدّ أنّها وقعت تحت إغراء زجاجات البيرة بينما كانت في طريقها لجلب الأسلحة، وتركتني هنا وحدي في موقفٍ حرجٍ. عن أي ربّ تسأل هذه السّيّدة؟ أنا في ألمانيا منذ سنةٍ واحدةٍ فقط، ولا أعرف حقّاً ماذا يقصد الهيبستر بالرّبّ تماماً. حاولت أن أستحضر في ذهني صوراً من الملصقات التي أراها في بارات كرويتزبرج طيلة الوقت، ثمّ ارتجلت ما يلي: لمّا أنّ الرّبّ يعرف تماماً أنّ العلاقات الإنتاجيّةَ الرأسماليّةَ تحمل بذور دمارها في ذاتها، فهو يمهلهم بعض الوقت ريثما نعيد نحن تجميع أنفسنا وطاقاتنا، بينما يقومون هم بالنّيابة عنّا بالمهمّة القذرة ويدمّرون أنفسهم بأنفسهم.

صمتت السّيدتان قليلاً مع شيءٍ من الدّهشة البادية، ممّا شجعني على التّمادي أكثر ومتابعة الحديث بنبرةٍ مسرحيّة: «ذلك الرّبّ القديم، كليّ الحكمة، المتّصل عاطفياً بجانبه الأنثوي، مثليّ الجنس والمتحوّل جنسياً، الذي يطلُّ علينا بحكمته مرتدياً مئزراً ملوّناً بألوان قوس قزح، الرّبُّ آكلُ النّباتات، الذي يلاحق مرتدي الفراء بسطول الطّلاء الأحمر، أقول لكم، هذا الرّبُّ يعرف أنّ ثقافة الاستهلاك تحمل في جوهرها ما هو قادر على سحقها من الدّاخل، لذلك يدعونا نحن تابعيه المخلصين إلى أن نكتفي بأن نقضي أوقاتاً ممتعةً في حياتنا، وأن نمضي إلى تمجيد المخدّرات والجنس والموسيقى التي بها روحنا تحيا. آمين».

كانت هذه الوصلة في مكانها تماماً، إذ في لحظة اختتامي للجملة كانت تولا قد قفزت من خلفي ورمت بماء اللّحم على السّيدتين اللّتين تراجعتا بذعرٍ من هول المفاجأة، ثم رفعت بوجهيهما عصا الماكدونالدز وهي تصرخ: «إلى الجحيم، إلى الجحيم أيها الهيبسترز!».

في هذه اللّحظة، قام جارنا بفتح باب منزله، الملاصق لمنزلنا، كي يرى ماذا يحدث بالضبط. كان هذا الجار شابّاً غريب الأطوار، ذا شعرٍ يصل إلى كتفيه، ودائماً ما يقوم بالتجوّل في المبنى ليتفقّد البريد أو ليضع ملابسه في غسّالة المبنى المشتركة، وهو يرتدي السّليب فقط، ويحمل على ذراعه وشماً قديماً لصليبٍ مقلوب، وأنوار شقّته مطفأةٌ طيلة الوقت.

قالت إحدى السّيدتين وهي تمسح ماء اللّحم عن وجهها بقرف: ما هذا؟ نحن لسنا هيبسترز. كل ما في الأمر أنّنا وجدنا هذه الملصقات على باب داركم فشجّعنا ذلك على دعوتكم إلى ما نؤمن به. ندعوكم لتكونوا من الفئة النّاجية، من شهود يهوه.

دخل الشّاب في الحديث قائلاً بخجل: في الواقع، أنا أحبّ أن أتحدث معكم إذا أردتم.

حدقت السيّدتان بالشّاب قليلاً، ثم اختفتا من أمامنا بلمح البصر.

إيه، كالعادة. لا يستلطفني النّاس بسبب مظهري.

قال الشّاب بعد أن اختفت السّيّدتان.

يخافون بسبب وشمي القديم هذا الذي صنعته في أيّام المراهقة، ولا يعرفون أنّني في الواقع إنسانٌ حسّاسٌ يحبُّ موسيقى البوب ويقضي وقته في العبادة. كلُّ ما أردته كان بعض الصّحبة، كي لا أبقى وحيداً في موسم عيد الميلاد الكئيب هذا، والذي تتوقّف فيه الحياة في المدينة.

بدأ كلُّ شيءٍ يتّضح في ذهني سريعاً، بدأت أشعر بالدّوار بينما تنكشف الحقائق أمام عينيّ: المحلات المقفلة واختفاء النّاس من الشّوارع، والازدحام في المولات. ثم صوت المتفجرات، في الخارج، النّاجم عن استخدام الألعاب النّارية، وصوت الكلاب الخائفة من المفرقعات. كما أنّ الرجل المتشرّد المجنون الذي صادفته في الطريق ما هو إلا رجلٌ متشرّدٌ مجنونٌ يتحدّث عن نهاية العالم في أيّ وقت، سوى

أنّ موسم الأعياد يزيد من نشاطه. التفتّ إلى تولا لأرى إن كانت قد فهمت ما يجري، ولكنّها كانت قد اختفت من قربي والتصقت بجارنا الشّاب داخلةً معه إلى شقّته وهي تبادله الأحاديث. آخرُ ما سمعته من الحديث، قبل أن يصيرا في الدّاخل ويغلقا الباب وراءهما، هو نقاشهما عن أيّ عضوٍ من فرقة «إن سينك» كان السّبب في دمار الفرقة.

عدت لأنظّف المنزل من الفوضى التي عمّت فيه. خرجت إلى الشّرفة لأنتزع أحد منشوراتِ التّحريض ضد المهاجرين التي كنا قد علّقناها، والتي تحمل رسم بساطٍ طائرٍ عليه عائلةٌ مسلمةٌ ومكتوب تحت صورة العائلة: «رحلة آمنة إلى المنزل، أنتم أجمل في أوطانكم». لفت نظري وجود شابٍّ صغيرٍ حليق الرأس على الشّرفة المقابلة. رفع إبهامه لي كعلامة إعجابٍ بالمنشور، فأجبته بإيماءةٍ خفيفةٍ مرتبكةٍ من رأسي. أسرعت للدّخول إلى المنزل وسمعته يصيح لي من بعيد: «عيد ميلادٍ مجيدٍ».

لا تقــل «جـــوب ســـــنتر» أبــداً

الحيّ الأول الّذي عشت فيه في برلين هو «نويكولن». في الواقع كان الأمر أليفاً جدّاً بالنسبة لي، إذ كانت المتاجر العربيّة والتركيّة في كلّ مكانٍ من حولي. مقاهي الشّيشة وحتّى محال تصفيف الشّعر العربيّة منتشرة أيضاً. هذا أمرٌ هامٌّ، خصوصاً الجزء المتعلّق بمصفّفي الشّعر، إذ لا يمكن احتمال أيّ خطأٍ ناجمٍ عن سوء فهم التّرجمة بينك وبين المصفّف. المصفّف غالباً ما يرتكب الأخطاء حتى لو كان يتكلم لغتك الأمّ نفسها، وحتى بعد أن تشرح له بالتفصيل كيف تريد أن تبدو قصّتك. مثلاً سيكون مصرّاً على أن يفهم جملة: «أريد أن أتخلّص فقط من ملّمترين من الأطراف المتعبة» على أنّها: «أريد التّخلص من شعري القذر، ذاكرة الخطايا، أفاعي ميدوزا بشكلٍ نهائي. أريد معاقبة نفسي على آثام حياتي السّابقة بتشويه شعري».

المهمّ في الموضوع ليس منطقة السّكن نفسها، ولكنّ الحيرة التي كنت أشعر بها عندما يسألني الأقارب والجيران في سوريا أسئلةً غريبةً عن حياتي في ألمانيا: «هل صحيحٌ أنّ الألمان عنصريّون؟ هل صحيحٌ أنّك إذا ما سألت أحدهم بالإنجليزيّة سيرفض الإجابة حتّى لو كان يجيدها؟ هل صحيحٌ أنّ الشّوارع هناك أنظف من المستشفيات هنا؟ هل صحيحٌ أن المرء إذا مات في الطريق، في ألمانيا، لن يجد من يلتفت إليه؟».

كنت أستغرب من هذه الأسئلة وخصوصاً السؤال حول عنصرية الألمان. ليس لديّ جواب لها إذ إنّني لا أعرف حقيقةً أين هم أولئك الألمان. أعني، لا أراهم كثيراً في الجوار. أرى أبناء جلدتي والأتراك وبعض الإيطاليّين والإسبان والقليل من الأمريكيّين، أمّا الألمان فلا أعرف عنهم الكثير في الحقيقة. لا أصادف أحدهم إلا لماماً لذلك ليست لديّ فكرةٌ إن كانت العنصريّةُ منتشرةً بينهم أم لا. بقي الألمان

بالنسبة لي مرموزاً غائماً حتّى اضطّررت في مرّةٍ للذّهاب إلى أقصى الجزء الشّرقيّ من المدينة. كان عليّ، من أجل ذلك، أن أستقلّ ميترو ينقلني إلى محطّةٍ يمرّ فيها الـ«إس بان»[3] رقم سبعة.

تبرّع صديقي برفقتي، وصعدنا القطار رقم ٧. شعرت بسعادةٍ عارمةٍ وأنا أنظر بدهشةٍ إلى كميّة الشّعر الأشقر التي رأيتها مجتمعةً للمرّة الأولى بهذه الكثافة. يا إلهي! هؤلاء هم الألمان إذاً! لقد سمعت عنكم كثيراً! أنهى صديقي وقفتي المتجمدة الذاهلة، وجذبني لنتّخذ أماكننا في الجلوس. كنت ما أزال أحدّق بالركاب بسعادةٍ وكانت هناك سيّدةٌ مسنةٌ تجلس في المقعد المقابل، وتحدّق بنا أيضاً ولكن ليس بسعادةٍ كبيرة على ما يبدو.

التفتّ إلى صديقي لأناقش معه خطوات استكمال طلب الجوب سنتر[4]. نكزني عندها بهدوءٍ وقال لي هامساً: «لا تقولي اسمه بالانجليزيّة لأنّه مفهومٌ لهم». نظرت حولي واكتشفت صحّة كلامه، إذ كانت نظرات الاستياء تزداد. تخيّلت الموقف من وجهة نظرهم: شخصان أسمران يبدوان غريبين، والأسوأ أنّهما يبدوان مهاجرين يتحدّثان بلغةٍ غريبةٍ تبدو عنيفةَ الطّابع، ثمّ تقفز منها فجأةً كلمةٌ مفهومةٌ وحيدةٌ، هي «جوب سنتر». أغلقت فمي طيلة الطريق بعد ذلك.

فيما بعد، أدركت أنّ هذه المشكلة لابدّ وأنّها أرقت الكثيرين غيري، فقد لاحظت أنّ المهاجرين الآخرين الذين أصادفهم، في وسائل النّقل أو في الدّوائر الرّسمية أو في المدرسة، قد ابتدعوا جملة من مصطلحات التورية التي تقوم مقام لفظة «الجوب سنتر» اتّقاءً لقولها بشكلٍ عليٍّ قد يزعج أحداً ما. البعض يختصر التّسمية إلى: «الجوب»، وآخرون يقولونها بالعربيّة:«البارحة كان لديّ لقاءٌ مع مركز العمل. هل فهمت ما أعني؟». البعض الآخر يكتفي بالإشارة إليه باسم «الجماعة»: «ذهبت إلى عند الجماعة وطلبت منّي الجماعة». ويبدو هذا الخيار الأخير اسماً مريباً أكثر بكثيرٍ من «الجوب سنتر» لأنّه يوحي على الأقلّ بعلاقةٍ مشبوهةٍ مع إحدى المنظّمات المتطرفة، أو في أحسن الأحوال مع تجّار مخدّرات.

3 «إس بان» اسم شبكة قطارات للنقل العام في ألمانيا.

4 الـ"جوب سنتر" هو الدائرة الحكومية المسؤولة عن تشغيل أو دفع راتب بطالة للعاطلين عن العمل في ألمانيا. اللاجئون الجدد يتلقون راتب البطالة اثناء الدورات الاجبارية لتعلم اللغة الألمانية.

في الواقع، لا يقتصر الأمر على تخبئة موضوع الجوب سنتر عن المواطنين حتى لا يتمُّ استفزازهم. كان يحدث مع بداية اللجوء الكثيف للسوريين إلى أوروبا، ألّا يعترف الكثيرون بأنّهم ينوون التّقدّم بطلبات لجوءٍ أو أنّهم نالوا الإقامة كلاجئين. ينتشر ذلك بالذّات في الأوساط التي تعدّ مثقفةً بطريقةٍ ما، حيث كان اللّجوء يعتبر أمراً معيباً. بشكلٍ غريبٍ، كلُّ السّوريين الذين كنت ألتقي بهم في البداية كانوا يقولون أنّهم هنا على أساس فيزا «عمل» أو «دراسة» مستبعدين أن يتقدموا بطلب اللّجوء، متحدّثين طبعاً عن أنّهم «لا يلومون النّاس البسطاء والمضطرّين لفعل ذلك».

بعد أن تجاوزنا مرحلة إخفاء موضوع اللّجوء، وبعد أن صار الأمر مكشوفاً للغاية، ظهرت مزاودات من نوعٍ آخر، حيث أصبح الأمر بمثابة سباق: «من هو الأقلّ لجوءاً من الآخر؟». يحدثُ أن أستمع إلى حديثٍ يتباهى فيه الأوّل أنّ مدّة إقامته خمس سنوات لا ثلاثاً، ذلك لأنّه حسب وصفه «ضيفٌ» وليس لاجئاً (رغم عدم وجود صفةٍ كهذه). بهذه الجملة يهدف لإغاظة الآخر ذي إقامة السّنوات الثلاث، والذي يبحث بدوره عن نقطةٍ يربحها في الجولة، فيقول مثلاً أنّه يعمل، والحمدلله، ويدفع الضّرائب ولا يعتاش كغيره على الجوب سنتر، قاصداً الأوّل، لذلك فإنه سيحظى بالجنسيّة أسرع من غيره، وهكذا.

هنالك أيضاً سباق هام آخر، ويقام تحت عنوان «من هو أكثر إندماجاً من»، يتم ذلك عادةً عبر منافسةٍ يربح فيها التسابق الّذي يجمع أكبر عددٍ من الأصدقاء الألمان وأقل عددٍ من السّوريين، أو يدّعي ذلك على الأقل. وصل الإدمان على هذه اللعبة الخطرة بأحدهم إلى حدٍّ إعجازي، حيث بات قادراً على السهر في الظهيرة والصباح حتّى. ففي أي وقت يصادفه فيه المرء يُقحم معلومة أنّه عائد للتو من سهرةٍ مع «أصدقائه الألمان». ليس لهذا السلوك علاقة بمركبٍ نقص على الأغلب. في الواقع سبق وأن استشرت عادةٌ مقلقة تتمّثل في أنّ كل الواصلين الأقدم نسبياً إلى برلين، يستهزؤون استقبال السوريين الجدد بجمل على شاكلة: «أعيش في عزلةٍ عن جو النميمة والكيد والطاقة السلبية المنتشر بين السوريين، فلا أراهم إلا صدفة، أغلب أصدقائي اليوم من الألمان». بعد اكتساب بعض الخبرة صرت أرتاب تحديداً من يردد هذه الترتيلة، إذ بيّنت التجربة أنّهم أكثر الأشخاص نقلاً لمجريات الحديث بحلول اليوم التالي إلى كل الناطقين بالعربية في ألمانيا والشتات.

هـل تريـد أن تصبـــح هكـــذا؟

بدأت القصة عندما عدت إلى البيت مرةً في المساء ورأيت لورا، صاحبة المنزل، غارقةً بين الأوراق. طلبت مني أن أقترب لأجلس بجانبها حتى تحدّثني بشأنٍ هام. تبيّن بعد قليلٍ أنّ القضيّة التي تشغلها هي قيام إدارة مدرسة ابنها بفصل زميلٍ له، بعد اكتشافهم أنه كان يدخّن في حمّامات المدرسة، ما قد يترتّب عليه حرمان الطفل من امتحانات نهاية العام. لورا، كممثلةٍ لمجلس أولياء أمور الطّلاب، يجب عليّها أن تتحدّث عن الموضوع في اجتماعٍ مع إدارة المدرسة والطّلاب، وتسعى للتشفع للطّفل حتّى يُسمح له بأداء الامتحانات. «ما رأيك أن تأتي معي؟ ألست تعملين في الصّحافة أو شيءٍ كهذا؟ من المؤكّد أنّ لديك شيئاً ما مفيداً لتقوليه».

بسبب الرّوابط التي تجمعني مع أيّ مدخّن في هذا العالم القاسي، ولشعوري بالظّلم والنّبذ الذي نتعرّض له كلّ يومٍ كمدخّنين، إضافة لكون لورا هي صاحبة البيت الذي أسكن فيه، تحمّست كثيراً للفكرة وطلبت منها أن تمهلني بعض الوقت لأختلي بنفسي في غرفتي، وأفكر فيما أستطيع فعله. وهناك بدأت بوضع خططٍ لهذا الاجتماع المصيريّ، مستحضرة روح ويليام والاس القتالية: «قد يستطيعون أخذ حيواتنا ولكنّهم لا يستطيعون أن يأخذوا منّا سجائرنا، أو أياً من عوامل خطر الإصابة بسرطان الرئة».

استدركت الموقف سريعاً وقدّرت أنّني أفكر باتّجاه خاطئ حيث أنّ المطلوب هو إقناع إدارة المدرسة بأنّ الطّالب يستحق فرصةً ثانيةً للامتحان، وليس المطلوب بأيّة حال تصعيد مطالب المدخّنين. بينما كنت أبحث عن الخطاب المناسب الذي يمكن لي أن ألقيه ليهزّ قلوب إدارة المدرسة، أجريت نظرة مسحية في رأسي لخطابات مالكوم إكس وهارولد ماكميلان في خطاب رياح التّغيير

وجورج السّادس وصولاً إلى ونستون تشرشل قبل أن أنتبه إلى أنّه ليس لائقاً الاستيحاء من نَفَسه الخطابي في ألمانيا.

بعد العصف الذهني والتداعي الحر، وجدت أنّ لديّ احتمالاتٍ عدّة:

الاحتمال الأوّل كان خطاباً من نمط: قصة نضال. في هذا الخطاب سوف أقف أمام النّاس وأقول إنّني كنت أدخّن حين كنت مراهقةً أيضاً، ولو لم تعطني الحياة فرصةً جديدةً لما أصبحت الشّخص الذي أنا عليه الآن. سرعان ما ألغيت الفكرة بعد انتباهي إلى أنّ هذا «الشخص الذي أنا عليه الآن» ليس مثالاً جيّداً يقتدي به المراهقون، أو تقتنع به إدارة المدرسة. شخصٌ لم يكمل تعليمه الجامعيّ، شبه عاطلٍ عن العمل ويعيش على المساعدات.

أمّا الاحتمال الثاني فخطابٌ من نمط: المدخّن ليس عدوّك. هنا أستطيع أن أشرح للناس غير المدخّنة عن آلامنا كمدخّنين حين يتعاملون معنا كوحوش. نحن كائناتٌ بشريةٌ، إننا من لحمٍ ودمٍ، ولنا مشاعرُ وأحاسيس. لا تظنوا أنّنا لا نشعر بالقهر إذ نرى اللّافتات العنصرية التي تمنع دخولنا للمطاعم والمباني. مرة أخرى، فكّرت أن تلك أيضاً فكرةٌ غير جيدةٍ لأنّني، بسعالي وصوتي العريض وأسناني المصفرّة ووجهي المزرق، لست أفضل نموذجٍ مقنعٍ يدعو للتسامح والسلام.

لم يتبق عندي سوى طريقة «المعرفة بالحذف» والتي تتمثل في خطاب: هل تريد أن تكون مثلي؟ بعدما استسلمت لحقيقة أنّه لن ينفع أن أتحدّث بأيّة طريقة أكون فيها أنا المثل المستقبليّ للطّلاب، فكّرت في عكس ذلك تماماً؛ أن أتبنّى خطاباً أحذّرهم فيه من أن ينتهوا إلى ما انتهيت إليه. سأقول في هذا الخطاب أنّ الطّالب المفصول يجب أن يأخذ فرصةً أخرى إنقاذاً له من مصيري الشخصيّ، إضافة لتوعية الطّلاب الآخرين إلى أنّ التّدخين والسّلوكيّات المرافقة له قد يودون بهم إلى وضعي البائس هذا، حين يصبحون في الثلاثينيّات من العمر.

لما ركنت إلى نوع الخطاب الأفضل، لمعت برأسي فكرةٌ، وهي أنّني أستطيع القيام بالمهمّة على نحوٍ أفضلَ إذا أحضرت أمثلةً مقنعةً أكثرَ منّي بكثير. دون تردّدٍ عرفت بمن عليّ أن أستعين، حملت هاتفي وطلبت الرقم.

* * *

عندما نادوا على اسمي في الاجتماع ووقفت أمام النّاس لأتحدّث، كنت متوترةً للغاية ولا أعرف ماذا ستكون نتائجُ الخطّة. احتمالٌ واردٌ جدّاً أن يطردوني، أنا وأصدقائي الدمنين الّذين جلبتهم كأمثلة للمصائر الشوّهة، ومعنا الولد المدخّن، فكان عقلي يعمل بسرعة وأفكّر بخطةٍ بديلةٍ في حال حدث ذلك، لئلا يضيع مستقبلُ الولد. خطّتي البديلة كانت أن نعمل كفرقةٍ موسيقيةٍ جوالةٍ في الميترو في برلين تؤدّي أغانٍ ملتزمة لمارسيل خليفة يجسّد فيها الطفل دور شال مارسيل الأحمر، أو نؤسّس فرقة مسرحٍ إيمائيٍّ تؤدّي عروضها في الشّارع ويتولّى الطفل مهمّة جمع الإكراميات ما يجود به المارّة.

أخيراً استجمعت شجاعتي وبدأت الكلام قائلة: لن أطيل عليكم يا سادة. سأختصر كلامي كثيراً، وأقول أنّكم بحرمانكم هذا الولد من فرصة إتمام تعليمه ومن امتحانات هذه السّنة قد تدفعون به إلى مستقبلٍ أسود. وكذلك بالنّسبة لبقية الطّلاب الموجودين، أتمنّى أن يكون ما سترونه الآن عبرةً لكم، وفي المرّة القادمة التي يوسوس لكم الشيطان فيها بأن تدخّنوا أو تتنشّقوا الكوكايين أو – صمتّ هنا قليلاً بعد أن حدّجتني لورا بنظرةٍ ناريّة – تذكروا ما سترونه الآن وفكّروا جيّداً: هل تريدون أن تصبحوا هكذا؟

أشرت لسعيد وصالح أن يدخلوا إلى الصّف. دخلا وهما يجرّان نفسيهما بصعوبةٍ بالغةٍ، كان صالحٌ قد نسي حقنة معلّقةً برقبته. أشرت له أن يزيلها ولكنّ حركة يدي استفزّته فاختار لسبب مجهول إصبعه الوسطى ليرفعها في وجهي ما أثار موجةً هستيرية من الضحك بين الطلّاب. أمّا سعيد فقد انتبه لنفسه وسارع لإزالة طابع الـ(LSD) عن أذنه ورماه في سلة المهملات. على الفور، انتشلت إحدى المدرّسات الطابع من القمامة وخبّأته في منديلٍ ضمن حقيبتها، بعد أن شاهدت أحد الطلاب يرمق الطابع بفضولٍ شديدٍ ولعابه يسيل.

طلبت منهما أن يتحدّثا للطلاب قليلاً عن حياتهما، ولكنّهما ظلّا واقفين غير قادرين على القيام بشيءٍ سوى النّظر لبعضهما البعض. بعد أن مرّت لحظات صمتٍ محرجةٍ تنحنح صلاح قليلاً وقال: «أرسطو، ولد وعاش ومات»، في هذه اللحظة داخ سعيد ووقع على الأرض، بينما لم يبدِ صلاحٌ أيَّ ردّ فعلٍ. كان شارداً يتأمّل لمبةً موضوعةً على الحائط.

حدث تدافعٌ في الصفّ والنّاس هرعت لإنقاذ سعيدٍ وإسعافه، وأنا أيقنت أنّ حياتي قد انتهت منذ هذه اللّحظة، فلا بدّ أنّني تسبّبت بطرد التّلميذ المسكين، كما أنّ لورا ستطردني من البيت دون شكّ.

في الصباح التّالي قرّرت أن أحفظ ماء وجهي وأغادر المنزل، قبل أن تطردني لورا، لكنّ لورا نادتني كي نجلس ونتحدّث في الأمر. ذهبت إليها وأنا أجهّز نفسي لتبرير تصرفي بأنّ كلّ الأفكار العظيمة قد تبدو جنونيّة للناس العاديين، أو ببساطةٍ أتذرّع بأنّي لاجئةٌ ومررت بحربٍ وأهلي مطلّقون، لذلك أفعالي لا إرادية. عندما رأتني وضعت في يدي ظروفاً بريديةً. هل هذه رسائل استدعاءٍ للمحكمة؟

قالت لي: منذ الصباح استلمت قرابة سبع دعواتٍ من مدارسَ ثانويةٍ وابتدائيةٍ مختلفةٍ سمعت بعرضك مع أصدقائك في مدرسة ابني، وهم يطلبون أن تذهب فرقة التّوعية هذه إليهم لتؤدّي عروضاً مشابهةً أمام الطلبة. قبل أن أبدي أيّة ردة فعلٍ، كانت لورا قد وقفت بحماسٍ وقالت: هيّا بسرعة، الواجب يناديا لإنقاذ أولئك الطلبة من براثن الإدمان، كما أنّ هذه المدارس تعرض علينا مبالغ ممتازةً لقاء هذه الخدمة. لدينا جولةٌ في كلّ أنحاء المدينة في هذا الأسبوع.

* * *

ذهبنا جولاتٍ في أنحاء البلاد، وبدأت تنهمر علينا الدّعوات لنذهب في جولاتٍ خارجيّةٍ. استمرّ ذلك حتّى طلب شريكاي رؤيتي في مساء يومٍ ما. قال لي صلاح أنّهما سئما هذا العمل، وأنّه مما يمسّ إنسانيتهما أن يتجوّلا ويعرضا أنفسهما كالقرود أمام الطّلبة، ثم أغمي على سعيد. تفهّمت ذلك بالطّبع وشربت مع

صلاح نخب جلستنا الأخيرة كفرقة «هل تريد أن تكون مثلهم». تزامن ذلك مع اضطراري لترك الغرفة التي كنت استأجرها لدى لورا، كونها كانت مضطرة لإنزال حماتها المسنّة فيها، ساعدني ذلك لأتخلص من كل ما يذكّرني بالأيام الجميلة للفرقة.

بعد ذلك بأسابيعَ قليلةٍ كنت في غرفتي الجديدة أقلّب بين محطات التّلفزيون بشكلٍ عشوائيٍّ، وأنا أشعر بالملل والاكتئاب بعد أن انتهى عهد الفرقة التي كانت قد ملأت حياتي. لفت نظري أمرٌ بدا مألوفاً على إحدى المحطات وأنا أمرّ عليها دون انتباه. عدت للمحطّة سريعاً دون أن أصدّق عينيّ في البداية. كان ما يظهر على الشّاشة فيديو مصور لأغنيةٍ تكنو، ويظهر فيه كلٌّ من سعيدٍ وصلاحٍ وهما يؤديان حركات مرافقة للأغنية.

لكنّ التّصوير كان بتقنيةٍ عاليةٍ كفيديوهات المشاهير، وكان هنالك طلّاب مدارسَ في الفيديو يهتفون لهما بإعجابٍ. حاولت الاتّصال بصلاح لأعرف ما يجري ولكنّ رقمه كان مقفلاً. لم أحاول الاتصال بسعيد طبعاً.

عدت وأنا أقضم أظافري لمتابعة ما يجري على الشّاشة. في الاستديو كانت هناك مذيعةٌ تستضيف سعيداً

وصلاحاً الذين يظهر أنّهما قد أصبحا موسيقيين معروفين وأصدرا أغنيةً جديدةً ضاربةً للتوّ. كانت المذيعة تقول: «هل تريد أن تصبح مثلهم، هل تريد أن تصبح هكذا، آه نعم، هكذا، هكذا. هذه الكلمات الرّائعة لأغنيتكما الجديدة التي حطّمت الأرقام القياسية في عدد المستمعين. من أين أتاكما إلهام هذه الأغنية وهل كتبتما هذه الكلمات وحدكما؟»

انتظرت الجواب على هذا السّؤال بقلقٍ، وهما يجلسان في الاستديو بكبرياءٍ ويرتديان مثل نجوم الرّاب محدثي النعمة، خواتمَ كثيرةً بأصابعهما مع معاطف فروٍ فوق بذلاتٍ رسميةٍ ونظّاراتٍ شمسيةٍ ملونةٍ. أجاب سعيدٌ وهو ينظر إلى صلاح أنّهما كتبا هذه الأغنية بنفسيهما، ولم يساعدهما أحدٌ أبداً. وافق صلاح بإيماءة من رأسه مضيفاً أنّ المعاناة تولّد الإبداع بطبيعتها. فما كان من سعيد إلا أن غاب عن الوعي في الاستديو. كان ذلك جارحاً لي كثيراً. بدا أنّ هنالك بارقةُ

أملٍ مع ذلك، لأنّ صلاحاً استدرك قائلاً: «ولكن هنالك شخصٌ رائعٌ نريد أن نشكره لمساعدته واكتشافه لنا ودعمه». هنا أحسست بالتعاطف معهما مجدداً، ولمت نفسي كوني أسأت الظنّ بهما، وانتظرت لأسمع ما سيقولانه عني. قال صلاح: «نريد أن نشكر السّيدة لورا لدعمها لنا منذ البداية وهي التي أتاحت لنا الفرصة في أن ننشر فنّنا الهادف بين أولاد المدارس، وشجّعتنا أن نطلق أغنيتنا هذه بعد أن ساهمت في دفع تكاليف الإنتاج».

أعلن سعيد بعد أن استفاق في هذا الجزء من الحوار، عن امتنانه لها بدوره خصوصاً وأنّها منحتهم غرفة في بيتها ليتمكنوا من تسجيل الصوت كما أنّ الغرفة وفّرت لهم عنواناً ثابتاً انتشر بين مروّجي المخدرات في المدينة، وختم حديثه بإعلانه أنّهم بفضل اللّه انتهوا من إنتاج ألبومٍ كاملٍ سيصدر في الأسواق قريباً، بعد أن خرجت الأغنية التي هي بمثابة درّة التاج: «هل تريد أن تصبح هكذا». سألته المذيعة بفضول عمّا إذا كان محتوى الألبوم توعويّاً أيضاً للمراهقين. فأجابها أنّه كذلك بالطّبع. وعدّد لها صلاح أبرز عناوين أغاني الألبوم: «هكذا هل تريد أن تصبح»، «تصبح هكذا هل تريد؟»، «هكذا تريد هل تصبح؟».

حاولت كثيراً الاتصال بصلاحٍ بعد ذلك اليوم، ولكنّه كان قد غير رقم هاتفه، ولورا كانت تتهرّب منّي باستمرارٍ متظاهرةً بالمرض الدّائم وفقدان السّمع والذّاكرة، عندما كنت أزروها في المنزل، وقد فقدت الأمل من محاولة التّحدث إليها، خصوصاً لمّا وصلت إلى مرحلةٍ تدّعي فيها أنّها مسوسةٌ من الشّيطان، وتتحدث باللّاتينية بصوت رجلٍ وهي تحاول تسلّق الحائط.

قرّرت أن أتتبّعها عندما تخرج من المنزل. وفعلاً بعد أيامٍ من المحاولة تمكّنت من اللّحاق بها إلى بارٍ تجتمع فيه مع صلاحٍ وسعيد ويتبادلون الأنخاب ويمرحون على جثث أحزاني وقهري من الطّعنة التي تلقّيتها في الظهر.

عندما فوجؤوا بي فوق رؤوسهم، توجهت للورا بالقول: «ماذا يا لورا؟ أراك تتحدّثين بطلاقة! كنت تتحجّجين في الأيّام الماضية بأنّك فقدت القدرة على معرفة الإنجليزيّة للكلام معي، لأنك لم تستخدميها منذ زمنٍ طويلٍ، ولأنّها تعيد

لك ذكرياتٍ سيّئةٍ من أيام الحرب، وتدخلك في التراوما، والآن تغرّدين بالإنجليزيّة معهما كما لو أنّك فرانكلين روزفلت».

أتذكّر أنّني تحدّثت إليهم كثيراً وعبّرت عن غضبي وقهري، ووعدوني أنّهم سوف يعوضونني عمّا فعلوه.

بإشراكي معهم في البزنس. لكنّ ما حدث بعدها، أنّ صلاحاً استصدر أمراً قضائياً يقضي بعدم اقترابي من أحد أعضاء الفرقة لمسافةٍ تقلّ عن خمسين متراً.

رغم وجود هذا الأمر القضائي، إلا أنّ المرء لا يستطيع مقاومة إغواء مراقبة الوحش الذي أطلقه، فصرت أذهب وأتفرّج من بعيد على حفلاتهم التي باتت تنال شعبيةً كبيرة. بعد نهاية إحدى هذه الحفلات الصاخبة التي أقيمت في بارٍ أناركيّ مشهور، رأيت ولداً منهمكاً بجمع العبوات الفارغة، عرفتُ فيه ذلك الولد المدخّن نفسه الذي اجتمعنا لأجله في البداية لإقناع المدرسة بعدم فصله. انتبه إليّ، ولكنّه لم يعرفني بمظهري الرثّ الجديد. خاطبني وهو يشير إلى المنصّة في البار بحماسٍ قائلاً: «كيف يستطيع المرء أن يصبح هكذا؟».

فــــــــــــــــــــيزا؟

مع برودة شهر كانون الثاني، كنت قد بدأت بتقديم أوراق معاملة اللجوء في ألمانيا. لم أكن أعرف شيئاً عن كيفية إتمام ذلك، كما أنّني كنت متوجسةً من العملية برمّتها، ربما لأنّني ارتكبت خطأً حين قرأت كتاب «ماوس» في تلك الفترة، وهو مذكّرات مصوّرة لأحد الناجين من المحرقة النازية.

عندما ذهبت إلى المكان المخصّص لتقديم الأوراق في شارع «تورم»، كانت هذه هي المرّة الأولى، منذ عامين،

التي أرى فيها مجموعاتٍ كبيرةً من السّوريّين في مكانٍ واحدٍ. شعرت بالألفة وأخذت أحاول فتح أحاديثَ مع كلِّ الذين أصادفهم. بعد وقتٍ قصيرٍ بدأ الموضوع يصبح متعباً.

في البداية كنت أجيب بصراحةٍ عن أيّ سؤالٍ يوجّه لي، ثم لاحظت أنّ الأسئلة كثيرةٌ فعلاً، وأنّ إجاباتي كانت تبدو مستفزّةً بعض الأحيان دون أن أدري.

كنت من الأشخاص المحظوظين الذين لم يضطرّوا لمواجهة مخاطر ركوب البحر أو الطريق البريّ الموحش ووصلت إلى هنا بواسطة فيزا نظامية، وهذه حالة نادرةٌ نسبياً بين المتقدمين لطلب اللّجوء اليوم. بسبب ذلك تعرّضت لأسئلة استنكارية شتّى، إذ كان من الطّبيعي أن تعترضني إحدى السّيدات لتسألني: «منذ متى وصلت؟»، وكنت أجيب بصراحةٍ: «منذ ثلاثة شهور تقريباً». فيأتي الجواب المتوجّس: «ولماذا لم تسلمي نفسك طيلة هذه الفترة؟» لأجيب ببلاهة: «لأنّ الفيزا كانت صالحة لثلاثة أشهر». هنا يسود صمتٌ مريبٌ، ثم تكرّر السّيدة عليّ جوابي ببطء: «فيزا؟!».

قد تكون هي في الواقع تتحدّث بشكلٍ طبيعي، إلّا أنّ شعوري بالذّنب، كوني أتيت إلى هنا بطريقةٍ مريحةٍ، هو ما يجعلني أتخيل أنّ النّبرة عدائية. لكن فعلاً كانت النّبرة الاستهجانية التي تعاد فيها على مسامعي كلّ مرةٍ كلمة «فيزا» أشبه بنبرة أمي في حال ضبطتني أدخن خلسةً عندما كنت مراهقة: «سجاااائر؟!، كان السّؤال ذو نبرة احتقاريّة إلى حدٍّ ما ويوحي بأنّ ما يراد قوله هو: «ومن أنت لتأخذي فيزا؟».

سؤالٌ آخرُ كان يطرح عليّ وهو: «من هذا الذي معك؟». في الواقع من كان يرافقني إلى هذه النّزهات هو رفيقي الطيّب الذي كان يسعى لمساعدتي ما استطاع، فكان يأتي معي إلى هنا لئلّا أقضي ساعات الانتظار الطويلة وحدي. كنت أجيب أيضاً بصراحة: «رفيقي». فأشاهد شفاه من يسألونني تزمّ دون رضا، إذ من هذا الذي ليس خطيبي ولا زوجي وبأيّ حقٍّ يرافقني إذا؟

المسألة الأخيرة كانت الأكثر إزعاجاً، وهي أنّني كنت أُسألُ عن المنطقة التي أنا منها في الأصل. حسناً هذا أمرٌ معقّد بالنسبة للذين لا يعرفون الجغرافيا والسّوسيولوجيا السّورية جيّداً. لقد عشت طوال عمري في دمشق، ولكنّي لا أستسهل القول بأنّني دمشقية رغم أنّ كلّاً من جدّي لأبي وجدّي لأمي عاشا في دمشق. هذا أمرٌ لا يتمّ التّسامح معه بسهولة من قبل العديد من الدّمشقيين الأصيلين، والذين يتباهون بانتمائهم للمدينة منذ أجيالٍ، ثم إنّ آخر ما كنت أريده هو أن أبدو وكأنّني أتمسّح بظاهرة كهذه. حقاً أنا لا أعرف غير دمشق مدينةً لي ولكنّ اسم عائلتي يوضح تماماً أنّني لست من هناك في الأصل، ما قد يوحي بأنّني أكذب أوأتظاهر بأنّني دمشقّية، وتلك تهمة غير مُحتملة، رغم حبّي للمدينة.

نأتي هنا إلى القسم الأصعب: من أين هي عائلتي؟ لم لا أقول ذلك لكل من يسألني بكل بساطة؟ ثمة مشكلةٌ بسيطةٌ في قول ذلك، وهي أنّ العمل في مجال المخابرات يستهوي الكثيرين من أبناء المدينة التي تنتمي إليها العائلة في الأصل. وهذا الجهاز هو بالتحديد ما يهرب منه معظم من جاءوا إلى هنا من السّوريين، وما أصبحوا بسببه لاجئين. لا يقوى المرء عادةً على شرح كلّ تعقيدات هذه القصص في ثوانٍ قليلة، كالكلام عن الانتماء الفردي وما شابه، وعن أخلاق ما بعد الرأسمالية والقول أنّ انتماء عائلتي إلى ذلك المكان لا يعني لي شيئاً، وأنّني هنا للأسباب نفسها التي أتى الآخرون لأجلها، وأنّني أقف معهم على خطٍ واحدٍ.

لذلك كنت أُصمت طويلاً عند سؤال «من أين أنت؟» لأغمغم شيئاً غير مفهومٍ وأحاول التّهرّب من الإجابة عبر نكات سخيفة مع ضحكة متشنجة: «من هذا العالم المتد»، أو أستخدم تقنية قلب السّؤال إلى سؤالٍ آخر: «من أين أبدو؟ حاول أن تحزر»، ثم أختار من إجابات السّائل مكاناً ما.

فيما بعد صرت أبتكر سيناريوهات جاهزةً للإجابة عن الأسئلة. فمثلاً، انطلقت أول البارحة وسلكت الطّريق البري مروراً بمقدونيا وبلغاريا، وأقمت يوماً عند أقاربي في النّمسا ثم وصلت إلى هنا لأسلّم نفسي وأبدأ بمعاملة اللّجوء. وتارةً أروي أنّني جئت عبرالبحر من ليبيا ونزلت في إيطاليا، ثمّ وصلت من هناك إلى برلين بسيارة أحد المهرّبين الملثّمين. هذا الذي معي هو ابن خالتي التي أقيم عندها الآن، ريثما تنتهي معاملتي وأحصل على الإقامة، وتارة هو زوجي الذي يتعامل معي بعنف ويضربني. كما انحدرت مرّات من ريف دمشق لعائلة صغيرة ومرّات كان أصل العائلة من العراق وقبلها وجدت لي جذوراً في تركيا.

كان ذلك يمضي على ما يرام حتّى حان وقت تسجيلي في مخيّم اللجوء. أعطوني عنواناً حيث يجب علي أن ألتحق لأسجّل نفسي وأقيم بشكلٍ مؤقّت ريثما يتم نقلي إلى مكانٍ آخر. لم نكن نعلم أنا ورفيقي أين يقع هذا المخيّم، فقمنا بسؤال أحد الشّبّان الذي تبيّن أنّه يقيم في المخيّم نفسه، فتبرّع بإيصالنا. في الطريق ونحن نمشي عادت الأسئلة، ولكنّها كانت توجه لرفيقي بطبيعة الحال، فهو الرجل، ولذلك هو المخوّل بالإجابة عنّي: «هل هي خطيبتك؟ من أين حضراتكم؟ كم من الوقت مضى لكم هنا؟». قال رفيقي أنّني خطيبته، كما انفرجت أسارير الشّاب حين علم أن مدينة رفيقي من أولى المدن السورية التي انضمّت للمظاهرات ضد النّظام، وارتاح لنا أكثر فكشف لنا عن موقفه السّياسي المعارض. بعد قليلٍ أحبّ أن يقوم بلفتةٍ طيبةٍ فاستدار إلى رفيقي (خطيبي المفترض) قائلاً بحماس: «لا تشغل بالك على الآنسة، سنهتمّ بها جيّداً. سأتحدّث إلى مدير المخيّم لنضمن أن يضعها حصراً مع نساءٍ سوريّاتٍ، لا مع نساءٍ لا يعلم سوى الله من هنّ ومن أين أتين». في الواقع كانت نيّة الرّجل طيّبة، لكنّني بدأت أسترجع في ذاكرتي التحقيق الذي أتعرّض له في كلّ تجمّعٍ سوريٍّ أصادفه، لذلك غافلت الشّابّين وتقدّمت بضع خطوات لأدخل المخيّم المؤقّت.

أسرعت إلى مسؤول االخيّم وأعطيته أوراقي وأنا أتلفّت خلفي جزعةً. قادتني بعد ذلك إحدى الموظفات، مع شراشف نظيفة، إلى إحدى الغرف التي تتضمّن أَسرّةً من طابقين. كانت هنالك فتاةٌ نائمةٌ بدت لي وكأنّها تنام بسبب الليل منذ الأزل ريثما تنتهي معاملتها. استيقظت الفتاة لدى دخولي فالتفتت إليّ. سألتها بسرعة :«هل تتحدّثين العربيّة؟ الإنجليزيّة؟ هل أنت من جماعة الفيزا؟»، قالت بتكاسلٍ وهي تتثاءب: «إنجلش ليتل ليتل». قلت لها: «ممتاز، رائعٌ جدّاً».

مخـــــــــدّرات شمســـــــــــيّة

عندما قرّرت مغادرة دمشق إلى بيروت، أتذكّر أنّ أمي كانت، وبعد أن رفضت فكرة سفري في البداية، قد استسلمت أخيراً لقراري. ولكنّها ظلّت تلاحقني من غرفة إلى أخرى في البيت وهي تطلب مني أن أحافظ على أخلاقي وأن أكمل دراستي الجامعية إذا تركت البلد. كان المرء يظنّ، وهو يستمع إلى هذا الكلام، أنّ كلَّ ما أريده من السّفر هو أن أدمن على المخدّرات والجنس العشوائيّ مع أي مارٍّ في الطّريق، ثمّ أضطرّ من أجل المخدّرات لبيع نفسي في النّهاية وللعمل كبائعة هوى. حسناً، في الواقع كنت أريد أن أعيش بحريّة حقاً، لكن دون الجزء المتعلّق بالمخدّرات وأداء خدماتٍ جنسيّةٍ للنّاس مقابل المال. ذلك ليس لأنّني أرى مشكلةً في الأشخاص الذين يفعلون ذلك، ولكن لأنّني غير مؤهلةٍ صحياً لهذا النّوع من الحياة المتوحشة حقاً. كان على أمّي أن تدرك هذا أكثر من أيّ شخصٍ آخرَ، كونها عاشت معي لسنواتٍ طويلة. أنا شخصٌ أشبه بمصاص دماءٍ متقاعدٍ بجهازٍ عصبيٍّ هشٍّ ومعدةٍ متعبةٍ. أقلّ شعاعٍ شمسيٍّ يؤذي بشرتي ويملؤها بالطّفح، لذلك أفضّل ألّا أتعرّض للشّمس، ولا أخرج كثيراً للطّرقات وأصاب بالقلق من أدنى صوتٍ وأشعر بالغثيان لأبسط سبب.

عندما انتقلت للسّكن في بيروت، وفي الوقت الذي كنت أركض فيه من مكانٍ لآخرَ محاولةً العثور على أغراضٍ للاستديو الذي استأجرته بأبخس سعرٍ ممكنٍ، وكنت أقضم أظافري من القلق وأنا أجري حساباتٍ يوميةً لأضمن أنّ ما معي من نقودٍ سيكفي حتّى آخرِ الشّهر، كنت حينها متأكّدةً أنّني في خيال جيراننا في دمشق، والذين يسألون أمّي عن أخباري بفضولٍ شديدٍ، أقضي الوقت على يخوت رجالٍ أثرياءَ وأحدٌ ما يقوم بشمّ الكوكايين عن سرّتي بينما أستلقي على طاولة بلياردو.

بعد أن أصبحت في أوروبا، لاحظت أنّ هنالك خيلةٌ غريبةٌ مرتبطةٌ بهذا المكان أيضاً. قد تجد في مجموعات الفايس بوك المخصّصة لتساؤلات القادمين الجدد أسئلةً من نوع: «هل صحيحٌ أنّ الأوروبيين سيجبرون ابني على ممارسة الجنس في المدرسة كنوعٍ من التّربية الجنسيّة؟».

لم أكن أهتمّ بملاحظة أيٍّ من هذه الأمور في البداية، حيث كنت منشغلةً بمتابعة الكم الهائل من المعاملات الرسمية التي يتوجب عليّ إجراؤها، ولكن ما إن أتى فصل الصّيف حتّى لاحظت ظاهرةً غريبةً يصعب تجاهلها في المدينة. كانت تحدث تصرفاتٌ جمعيةٌ مريبةٌ في هذا الموسم هنا. أناسٌ يسرعون بخلع ملابسهم والركض في مجموعاتٍ إلى أماكن كالحدائق وما شابه.

صرت أندسّ بينهم وأنا أحمل في جيبي دفتر ملاحظاتٍ لأسجّل عليه مشاهداتي في محاولة لفهم ما يجري، رغم أنّني لا يجب أن أتعرض للشمس، ولكن لا بأس، العلم يحتاج إلى تضحية. لاحظت أنّهم كانوا مفرطي الحيويّة وهم يشقّون الزحام في محطّات المترو وفي الشّوارع ليصلوا إلى الحدائق والمساحات المفتوحة.

أعراض النّاس المشاركين في هذه الظّاهرة كانت كما لخّصتها:

نشاط زائد.

توتّر.

حركاتٌ لا إراديّة.

عدم تركيز.

سعادةٌ شديدة.

انفصالٌ عن الواقع.

ميلٌ للتّسامح ومحبّة الجميع والسّلام.

رغبةٌ في الاستماع إلى الموسيقى.

ثمّة أكثر من نوعٍ من المخدّرات يمكن أن يتسبّب بهذه الأعراض. بدأت أكتّف البحث في الإنترنت لأدوّن تأثير كلّ مخدّرٍ قد يكون سبباً لهذه الظاهرة الغريبة، وأقاطعه مع الملاحظات التي دوّنتها لديّ ولكن دون جدوى. لم أتمكّن من تحديد نوعٍ معيّنٍ بذاته. كدت أفقد الأمل حتّى لاحظت شيئاً مهمّاً: بدأت هذه الأعراض تختفي مع نهاية الصيف، ثم تتلاشى تماماً مع بداية الشّتاء ليعود النّاس لاكتئابهم الطبيعي. سجّلت في دفتري التّفسير العلمي الذي توصّلت إليه:

«يُشكّ بأنّ هذا طقسٌ سنويٌّ دينيٌّ مرتبطٌ بالمخدّرات، ويمارَس فقط في فصل الصّيف حيث يتقرّب النّاس إلى الآلهة بخلع الملابس كي يتواصلوا معها على حقيقتهم بلا أيّة حواجز، وبتعاطي المخدّرات ذات النّوع

المجهول حتّى تاريخ كتابة هذه الأسطر من الدّراسة حتّى يتمكّنوا من الوصول إلى أبعادٍ روحية جديدةٍ تتواجد فيها هذه الآلهة».

كنت أجهّز النّتائج التي وصلت إليها وأعيد تحريرها طامحةً إلى نشرها لدى مركز أبحاثٍ ما، حتّى حصل تغييرٌ جذريٌّ في مجرى البحث أجبرني على إعادة النّظر في كلّ ما جرى.

ذات مرّةٍ كانت إحدى صديقاتي تزورني في المنزل، وكنّا نجلس في المطبخ لنتحدّث ونحن نشرب القهوة. كانت صديقتي متوتّرةً بعض الشيء لأنّها انفصلت حديثاً عن حبيبها. استأذنتها لأدخل الحمام، وحين خرجت بدت صديقتي بهيئةٍ مختلفةٍ. كانت نظراتها زائغةً وحركات جسدها متوترةً لكنّها تبتسم دون سببٍ وهي تحدّق في اللّاشيء، وكانت يداها ترتجفان وهما تحملان فنجان القهوة أثناء محاولتها رفعه إلى فمها. سألتها إذا ما كانت بخير فاكتفت بهزّ رأسها وهي تبتسم بطريقةٍ عصابيةٍ، ثم وقع الفنجان من يدها فجأةً وتناثرت قطعه الزجاجية على الأرض. انحنيّت لألتقط القطع فاستغلّت هي الفرصة وخطفت حقيبتها من على الطّاولة وهرعت إلى خارج المنزل راكضةً.

سوى خوفي عليها كان هنالك أمرٌ آخرُ يقلقني، إذ كانت هذه المرةَ الوحيدةَ التي لاحظت فيها نفس أعراض الهيجان الصيّفي على أحد ما في عزّ الشّتاء. كنت بحاجة إلى أن أعيد ترتيب وتجميع أفكاري وفقاً لهذه المعطيات الجديدة لكنني بدأت أصاب بالدّوار وبات عليّ أن أتناول مجموعة المكمّلات الغذائية اليوميّة التي أحتاجها. إحدى العلب كانت مفقودةً رغم أنّني قمت بوضعها منذ قليل على الطاولة قبل مجيء صديقتي، إلّا أنّي سهوت عن تناولها بعد أن أخذني الحديث. أنا متأكّدة من أنّ العلبة كانت هنا ولكنّني لم أعثر على أيّ أثرٍ لها. بقيت أبحث حائرةً لمدّة دقائق قبل أن تصعقني فكرةٌ جنونيةٌ قد تفسّر كلَّ شيءٍ يحدث. كان إدراك ذلك الاكتشاف أصعب من قدرتي على احتماله، ففتحت النّافذة لأتنشّق بعض الهواء رغم الصّقيع في الخارج. كانت أشعّة الشّمس الضئيلة المتسرّبة من بين الغيوم تحمل كلَّ الإجابات. كانت العلبة المفقودة هي علبة مكمّلات الفيتامين «د»، والتي أضطر لتناولها منذ سنواتٍ طويلةٍ، بسبب عدم إمكانيّة تعرّضي للشّمس. هنالك شيءٌ ما في العلبة أغرى صديقتي ودفعها لتجريب إحدى الحبوب فأصيبت بأعراض مهرجان الصيف نفسها. ذلك يعني أنّ الأعراض التي تصيب أولئك النّاس في فصل الصّيف ناجمةٌ عن التّعرّض مباشرةً لأشعّة الشّمس بعد فترةٍ طويلةٍ من اختفائها، ممّا يجعل منسوب الفيتامين «د» مرتفعاً فجأة في أجسامهم، مسبّباً تلك الأعراض الشّبيهة بتعاطي المواد المخدّرة.

ذهبت بعد فترةٍ إلى منزل صديقتي لأتحدّث معها في هذا الموضوع، إذ كنت قلقةً من أن تسيء استعمال حبوب

الفيتامين «د» أو تفرط في تناولها. كانت واقفةً على باب المنزل وتبدو بحالةٍ رثّةٍ، كما أنّها فقدت الكثير من الوزن، والمنطقة التي تحت عينيها تبدو زرقاء. كانت تدخّن بشكلٍ شره. شعرت بالقلق وأنا أراقب مظهرها. قالت لي وهي تنفخ الدّخان في وجهي: «أظنّ أنّه لم يعد هنالك أمل».

نظرت إليّ نظرةً طويلةً حزينةً وقالت: «أفكّر جدّيّاً بإنهاء ذلك كلّه والتّخلص من هذه الحياة البائسة».

أدخلتها إلى المنزل، ووبّختها بصرامة:

لا أريد سماع ذلك منك أبداً مرّةً ثانيةً. ثم كيف سمحت لنفسك أن تصلي إلى هذه المرحلة وأنتِ طالبةٌ جامعيةٌ مثقفةٌ؟

ظننت في البداية أنّني أستطيع إيقاف نفسي في أيّ وقت، وأنه لا بأس من تناول جرعاتٍ بسيطةٍ. ولكنّ الأمر كان مثل الصعود إلى الزّحليقة، عندما تضعين قدمك في بداية الطّريق ستكملين حتّى النّهاية. بدأ الأمر بتناول بضعة حباتٍ تنسيني مشاكل الانفصال عن حبيبي، وانتهى الأمر بأن تم طردي من العمل وأصبحت مثقلةً بالديون.

ولكن، كلّ ذلك حدث في أسبوعين؟ ثم أين ذهب أثاث منزلك؟ أرى أنّ طفلك الصغير لا يجد ما يجلس عليه سوى معطفه. ثم لماذا يبدو هذا الولد ناهلاً إلى هذه الدّرجة؟ أرجوك قولي لي أنك لا تتناولين هذه الحبوب أمام الطفل؟

اضطررت لبيع أثاث منزلي بعد أن أغرقتني الدّيون لأتمكّن من شراء المزيد من الحبوب. لا أظن أنّ الصغير يتناول من الحبوب الخاصّة بي لأنّني بالكاد أتدبّر حاجتي منها، ولكنّي أشكّ أنّ أحد مروجي الفيتامين «د» يستهدف مدارس الأطفال ويقوم ببيع الحبوب للتلاميذ الخارجين منها.

هذا أمرٌ لا يمكن السّكوت عنه! هل وصل الجشع وانعدام الأخلاق إلى بيعها للأطفال!

الموضوع بات أكبر منّي ومنك للأسف. المروّجون مرتبطون بشبكةٍ عالميّةٍ لتجارة الفيتامين «د»، تعمل على تهريب الحبوب من الحقول التي تُزرع فيها في كولومبيا، ليتم توزيعها على شبكةٍ من المتورّطين في كلّ أنحاء العالم.

لقد اكتشفتِ الأثر المخدّر الشّبيه بالشمس لمكملات الفيتامين «د» في منزلي قبل أسبوعين فقط! كيف تمكّنت من نشر الخبر بهذه السّرعة لدرجة أنّ الفيتامين بات يزرع الآن في كولومبيا ليفي بالمتطلبات العالية له؟

لا أعرف في الحقيقة، لا أذكر... أو ربّما، بصراحة، كتبت شذرةً شعرية بالغة الرمزية ولكنّها قد توحي بالمديح لأثر هذه الحبوب الجيّد على التويتر.

حقّاً؟ وماذا كتبت؟

كتبت: «أدمنوا على مكملات الفيتامين «د». إنها أفضل من الإكستاسي».

إنّها تلميحٌ خفيٌّ وبارعٌ فعلاً. هل هذا كلُّ ما قمتِ به؟

في الواقع لا. بعد أن غادرت منزلك ذهبت إلى حفلة تكنو مع بعض الأصدقاء. وزّعت عليهم بعض الحبوب التي أخذتها منك بعد أن شرحت لهم مفعولها. شعرنا بالسّعادة في تلك اللّيلة كما لم نشعر من قبل. انتشر الخبر في اليوم التّالي، على ما يبدو، لتصبح الحبوب تقليعةً جديدةً من تقليعات الكلوبّات وقد أطلقوا عليها لقب: «أورغازم شمسي»، ومن ثمّ نفدت الكميّات من الصيدليّات، وبدأ الديلرية ببيع ما يحصلون عليه بأسعارٍ باهظةٍ. حتّى أنّ إدارة المدينة بدأت تدعم جلسات دعمٍ نفسيٍّ لمساعدة المدمنين. فريق كرة القدم الوطنيّ انضمّ أيضاً إلى خطّة توعية المراهقين والأطفال بلبس تي شيرتات تحمل طبعة: قل لا للفيتامين «د».

أقنعتها فيما بعد أن تنضمّ لبرنامج حكوميٍّ للمعالجة من الإدمان، يقوم على تعريض المرضى كلَّ يومٍ لضوء مصباحٍ لمدّة ساعةٍ كاملةٍ في الأشهر الأولى، ثم يخفضون الجرعة بالتّدريج حتّى يتمَّ سحب الفيتامين «د» من الجسم، فيصبح جسم المدمن نظيفاً تماماً. قد يمنحونه بعدها فرصةً في وظيفة أو يدعمونه للعودة إلى الجامعة. أشعر بالسّعادة كلّما رأيتها مع طفلها وقد استعادت صحّتها تدريجيّاً وزاد وزنها إضافةً إلى أنّها اكتسبت لوناً برونزياً رائعاً إثر التّعرّض لضوء المصابيح بشكلٍ منتظمٍ، ولكنّ هذه السّعادة سرعان ما تتلاشى كلّما رأيت مروّجاً يعرض ما لديه من الفيتامين في الأزقة المعتمة. هذه الشكلة باتت أكبر منّا فعلاً.

تعلّم اللّغة في مدرسة الحياة

عندما يتمّ قبول طلب لجوء المرء في ألمانيا، يحتّم عليه ذلك الالتزام بدراسة اللّغة الألمانيّة حتّى مستوىً معيّن، ويعيله الجوب سنتر حتّى يبلغ هذه المرحلة. بالنّسبة لي، كنت على كلّ الأحوال راغبةً بتعلّم الألمانيّة دون الحاجة لإجباري على ذلك. من البديهيّ أنّني أريد أن أتفاهم مع النّاس في هذا المكان الذي أعيش فيه، كما أريد أن أكون قادرةً، على الأقلّ، على تسيير معاملاتي بنفسي دون الاستعانة بمترجم مكلف أو تسوّل خدماتٍ كهذه من أصدقاء يتأفّفون منها.

حسناً، ربما لم أحلم طيلة حياتي السّابقة بتعلّم الألمانيّة، إذ كانت لديّ تجربةٌ صعبةٌ معها. في دمشق، وحيث هي جنّة انعدام حقوق الملكيّة لأيّ شيءٍ كان، يمكنك العثور على أيّ سي دي بمبلغٍ زهيدٍ هو خمسون ليرةٍ سوريةٍ. بسبب ذلك، كنت قد اعتدت على شراء كلِّ ما تقع عليه يداي من سيديهات تعليم اللّغات، ولكنّني كنت أشاهد أوّل درسٍ من كلِّ لغةٍ فقط، ثم يصيبني الملل أو يضيع السّي دي في فوضى غرفتي الخلّاقة. هكذا تشكّلت لديّ مجموعةٌ غريبةٌ من مفردات اللّغات الأجنبيّة بحسب الدّرس الأوّل من كلِّ سي دي. من اللّغة الإيطاليّة، وحيث أن الدّرس الأوّل كان موضوعه الأكلَ والشّربَ، بتّ أعرف أسماء مخلّل الخيار أو الفاصولياء مع أسماءِ بعض الفواكه بالإيطاليّة، لكن دون أن أقوى على وضعها في أيّة جملةٍ كانت. في الإسبانيّة كان الدّرس الأوّل هو: «في الفندق». كان سي دي الإسبانيّة هذا غريباً بعض الشّيء، إذ كانت الشّخصية التي تلقّننا الدّروس هي عبارةٌ عن كلبٍ يرتدي قبعةً مكسيكيةً، وكان الدّرس الأوّل يعلّم الطّالب كيف يتمكّن من حجز غرفة فندقٍ، دون حمّامٍ، لليلةٍ واحدةٍ، ذلك لأنّه «يستطيع الخروج واستخدام خرطوم الماء في الشّارع». لم أستفد شيئاً من هذه المعلومات حتّى على سبيل استخدامها كطرفةٍ مع أشخاص ناطقين بالإسبانيّة ألتقيهم لفتح حديثٍ، إذ لم يجدوا الأمر طريفاً أبداً. من العبريّة مثلاً، أصبحت

أحفظ لسببٍ غامضٍ مقاطعَ من التّوراة منطوقةً بعبريةٍ بلهجةٍ أمريكيّةٍ. من الفرنسيّة تعلّمت استخدام بعض جمل الاستفهام. عندما وصل الأمر إلى الألمانيّة، جاهدت كثيراً حتّى أكمل الدّرس الأوّل، مع ذلك لم يعلق بذاكرتي سوى كلمةٍ سهلةٍ وهي «كوخن» كاسم للكعكة. لم أتخيّل في يومٍ من الأيّام أنّ هذه اللّغة هي ما كان عليّ أن أتعلّمه حقاً، وأنّني بعد سنواتٍ سأنتهي في ألمانيا وسأندم أنّني لم أولها الاهتمام الكافي قبل ذلك.

حين توجّب عليّ أن أبدأ بشكلٍ رسمي دراسة اللّغة الألمانيّة في إحدى المدارس، رفضت أن أتعلّمها بهذه الطريقة التّقليديّة، إذ لطالما كانت لديّ قناعةٌ أنّ المدارس غير قادرةٍ على تعليم اللّغة. في زيارتي التّالية إلى الجوب سنتر، وعندما سألني الموظّف الذي يقوم بدور المستشار المهنيّ عن اسم المدرسة التي اخترتها لأتعلّم اللّغة فيها، طالباً مني وصل التّسجيل في المدرسة، ناولته مظروفاً كبيراً. فتحه ليجد فيه ورقةً صغيرةً مكتوبٌ فيها بخطّ اليد «مدرسة الحياة». قلّبها في يده وبدا عليه الارتباك.

كم هو أمرٌ ملهمٌ هذا يا سيّدتي، ولكن أودّ أن أعيد سؤالاً كنت قد طرحته عليك المرةَ الفائتةَ؛ بعض النّاجين من مناطقِ الحروب قد يكونون معرّضين لبعض المشاكل النّفسية، وفي حال كنت تشكّين أنّ لديك مشكلةً ما من هذا النّوع فنحن على أتمّ الاستعداد لدعمكِ. هل أنت بحاجةٍ إلى دعمٍ نفسيٍ؟

لا شكراً، أنا بأحسن حال. (أجبت بتوتّر).

هل أنت متأكّدة أنّك لا تعانين من أيّة مشكلة نفسيّة تجعلك خطرةً على نفسك أو على الآخرين؟

طبعاً لا، أنا بأحسن حال. (قلت هذا وأنا أتسلّى بطعن دمية دبٍّ كانت في حضني لأخرج منها القطن).

خرجت من الجوب سنتر بعد أن طردني الموظّف دون أن يقتنع أنّني يجب أن أدرس اللّغة في مدرسة الحياة، وعوضاً عن ذلك عاد لمطالبتي بأن أعود إليّه المرة القادمة ومعي وصل تسجيلٍ في إحدى المدارسِ المعتمدة من دائرة الأجانب.

تبّاً للقوانين! قرّرت أن أخرج وأتعلّم الألمانيّة وحدي في فترةٍ قياسيّةٍ لأعود إليّه وأذهله بصحّة نظريّتي. وحتّى أشجّع نفسي أكثر، أخذت أشاهد على اليوتيوب فيديوهات شابٍّ إيرلنديّ يدعى جيمي يتقن تسع لغاتٍ، ويقول أنّ سرَّ تعلّمه لهذه اللّغات هو أنّه يقحم نفسه إقحاماً في اللّغة ويتحدّث مع النّاس. أي أنّه «يرمي نفسه» في البيئة التي ينوي إتقان لغتها.

أعجبتني الفكرة وقرّرت أن أخرج على الفور لأرمي نفسي في اللّغة. صعدت إلى الباص وأنا أحاول أن أتذكّر بالضبط ماذا كان يقول صديقي لسائق الباص عندما يريد شراء تذاكرَ لنا. وقفت قليلاً ببلاهةٍ أحدّق في السّائق ريثما أتذكّر، ثم لمعت العبارة بذهني فجأةً، فصحت بصوتٍ عالٍ لدرجة أربكته:

«Zweimal zwei Zonen, bitte»

نظر السّائق خلف كتفي ليرى إن كان معي أحدٌ، ثم بدا أنّه سألني عن شيءٍ ما. لم أفهم سؤاله وكرّرت بإصرارٍ ما أعرف قوله:

«Zweimal zwei Zonen, bitte»

أعطاني تذكرتين بدلاً من واحدة، ولم أعرف كيف أصحّح له سوء فهمه هذا، ثم قدّرت أنّ هذا هو الطبيعي ربما؛ أن آخذ تذكرتين، واحدةً للذهاب وأخرى للإياب. لاحظت أنّ ركاب الباص يحدّقون بي باستغرابٍ ولكنّني لم أعبأ بأحدٍ، بل جلست في المقعد وأخرجت لعبة الدّبّ التي أتسلّى برفقتها من حقيبتي، والتي كان القطن قد خرج منها بسبب طعني لها في أوقات الفراغ. أجلستها على المقعد جانبي وأخذت أتدرّب بالحديث معها على بعض الجمل البسيطة بالألمانيّة. صعد قاطع التّذاكر إلى الباص، ولمّا اقترب مني قال له السّائق المريب من خلف مقوده شيئاً لم أفهمه، فتجاوزني.

في المقهى تدرّبت أيضاً على قول بضعة أشياءَ، ولكنّ الأمر لم يجرِ على ما يرام أبداً. كنت قد اعتدت أن أقول:

«يوماً سعيداً، أريد كوب قهوةٍ من فضلك». ولكن لا! كان يجب دائماً على النّادل أو النّادلة ألّا يكتفيا بـ«موجود» أو بـ«غير موجود»، وهي الردود التي أعرف ترجمتها. كان عليهما دوماً أن يجيبا بجملٍ طويلةٍ جدّاً لا أفهم منها شيئاً، سائلين عن الإضافات التي أريدها، أو إذا ما كنت أريد تناول شيءٍ آخرَ مع القهوة، مثل أنواع الحلوى الموجودة في المقهى.

لم يجر الأمر بشكلٍ جيد في التّعامل مع النّاس، لذلك حاولت أن أجعل الهدف أكثر تحديداً، فاشتركت في موقعٍ إلكترونيٍّ لتبادل اللّغات، تتعرف من خلاله على أشخاصٍ يريدون تعلّم العربيّة مثلاً مقابل تعليمك الألمانيّة. كلّ ما حصلت عليه من هذا الموقع هو طلبات تعارفٍ من شبّانٍ عربٍ أصلاً أو رسائل مريبةٌ من نوع: «أستطيع تعليمك الألمانيّة إذا أتيتِ إلى منزلي».

ولكن بالطّبع، أيّها الرجل الغريب الذي لا أعرف عنك شيئاً سوى أنّ اسمك الوهمي على الموقع هو «Mr 69. Punisher»، بالطّبع! لم قد لا أرغب في الذّهاب إلى منزلك؟ من منّا لا يرغب أن يجد نفسه في الصباح التّالي مقطّعاً إلى أجزاءٍ وموزّعاً في أكياس قمامةٍ بلاستيكيةٍ في أرجاء المدينة؟

كدت أفقد الأمل لولا أنّني ألقيت نظرةً على خزانتي التي علّقت عليها صورةً لجيمي، عبقريّ اللّغات، حتّى أستمد منه الإلهام. فكّرت أنّ الخروج إلى الطّريق والحديث إلى النّاس يستلزم بعض التّأسيس السّابق في المنزل. بدأت أحاول مشاهدة مسلسلاتٍ للأطفال باللّغة الألمانيّة مثل«السّنافر»، ولم ينجح الأمر كثيراً، إذ انشغلت للغاية بمتابعة أحداث المسلسل دون التّركيز على اللّغة. جرّبت استخدام مواقع تعليم اللّغة. شاهدت مسلسلاً اجتماعياً خفيفاً علّي أتعلّم شيئاً. استمعت إلى بعض الأغاني الألمانيّة القديمة. جرّبت أن أقلب لغة بعض الألعاب التي ألعبها على الكمبيوتر إلى الألمانيّة. كلّ هذه الجهود ذهبت عبثاً ولم يتعدَّ حفظي سوى بضعة كلمات: «لو سمحت»، «وداعاً»، «كم ثمنها؟»، «٩٩ بالوناً» و «نهار سعيد».

فقدت الأمل وخرجت إلى الطّريق. طلبت من الرّبّ أن يرسل لي إشارةً بشأن ما ينبغي عليّ فعله لتعلّم الألمانيّة بطريقةٍ ثوريّةٍ. تمشيت طويلاً في الطرقات دون أن أعثر على أيّة إشارةٍ مطلوبة.

ثم فجأةً، لفت نظري وجهٌ مألوفٌ في الطريق. اقتربت أكثر لأتأكّد، هل يعقل ذلك؟ كان شابّاً يبدو وكأنّه سائحٌ يسأل المارّة عن الطريق بألمانيّة محطّمة:

Sir, oh Herr... Hallo, Kennen sie wo is I mean: ist hubbanhof? Wie gehe ich nach sie?

ربّاه، هذه أسوأ بعد من ألمانيّتي! تقدّمت إليه لأتأكّد، إنّه هو! اقتربت منه بوجهٍ عابسٍ يقطر منه السّمّ. فبدا أنّه يريد سؤالي عن الطريق. بادرته:

ألست أنت جيمي؟ جيمي ساحر اللّغات؟

بقي ينظر إليّ لثوانٍ ثمّ هرب فجأةً من أمامي ولحقت به عبر عدّة شوارع. حاول الإفلات مني بتسلّق بعض الأسوار الحديدية والمباني، ولكنّني تمكّنت من اللحاق به حتّى أدركته قرب قناةٍ مائيّةٍ وثبّتّه من ياقته جيّداً.

في أحد الفيديوهات التي نشرتَها، كنتَ تتحدّث الألمانيّة أفضل من نيتشه يا جيمي أليس كذلك؟ أليس كذلك يا جيمي؟

نعم نعم. أنا أتقن الألمانيّة فعلاً، ولا أدري لماذا تسألين حقاً. ولكنّني أحبّ أن أقوم بتجارب ميدانيّة لأقيس تفاعل النّاس فأدّعي أنّني لا أفقه فيها شيئاً.

جيّد، أطربني إذاً، نوّرني يا عصفور اللّغات، وأخبرني ما هي ترجمة: «لقد قضى شرشبيل على مواردنا من القمح يا بابا سنفور» بالألمانيّة؟

«شرشبيل خبز مات بابا سنفور».

أفلتّ ياقته، وبدأ يعترف بنفسه بعد أن استجمع أنفاسه:

هل كنت لتصدّقي أنّ أحداً ما يتقن تسع لغاتٍ ومن بينها الألمانيّة؟ كنت عاطلاً عن العمل لوقتٍ طويلٍ. كنت أنتظر فترة انتهاء دوام المتاجر لأشتري

منها بقايا السّندويشات الباردة المعلبة بسعرٍ رخيصٍ. ثم أتتني فكرة رفع الفيديوهات على اليوتيوب. جرّبت الكثير من الأفكار في البداية دون طائلٍ. بدأت بإطلاق قناةٍ مختصةٍ بفيديوهات «طعامٌ في غير محلّه». يصوّر فقط حيواناتٍ تأكل طعاماً لا ينبغي عليها أن تأكله، مثل عنزاتٍ تأكل جرائدَ أو قططٍ تأكل السّباغيتي أو كلابٍ تأكل...

مفهوم مفهوم لا داعي لإكمال هذا، لقد رأيت الكثير من الكلاب تأكل هذا الشّيء.

للأسف لم تنجح هذه القناة في اجتذاب أي مشاهدين.

غريبٌ فعلاً.

حاولت تجربة الكثير من الأفكار حتّى تذكرت ميزةً وحيدةً أبرع فيها، وهي معرفة جملة أو جملتين من كلّ لغة.

نعم أعرف هذا الشّعور جيّداً.

من هنا انطلقت فكرة تصوير فيديوهاتٍ أنصح النّاس خلالها بطرقٍ لتعلّم اللّغات بشكلٍ ثوري، وأدّعي فيها أنّني على معرفةٍ تامّةٍ بكلٍّ تلك اللّغات التّسع. نالت هذه الفيديوهات مشاهداتٍ واسعة واستفدت من ذلك بمردودٍ ماليٍّ جيّدٍ عن كلّ مشاهدة.

تعني أنّ حتّى فيديو اللّغة اليابانيّة الشّهير...

ولا كلمة، لا أعرف سوى العدّ من الواحد إلى ثمانية باليابانيّة. لكنّ الفيديو اشتهر بسبب مشاهد مسلسلات الهينتاي التي اخترتها لترافقه.

نعم، كانت جميلةً للغاية. إذاً أنت لا تظنّ حقيقةً أنّنا نستطيع فعلاً تعلّم اللّغات وحدنا عبر التّحدّث إلى النّاس في الطريق.

قطعاً لا، هذا مستحيل.

هذا ما ظننته على الدّوام، اذهب في أمان اللّه يا جيمي. اذهب، يكفي ما لقيته منك حتّى الآن.

شكراً، ولكن هل لك أن تدلّيني كيف أذهب إلى محطّة القطارات الرئيسية؟

اذهب يا جيمي في أمان اللّه. أقول لك اذهب قبل أن أريك الطريق إلى محطّة قطارات العالم السّفلي تحت حكم الإله هادس.

تلاشى جيمي في زحام النّاس وظللت أنا أفكّر فيما ينبغي عليّ فعله. ذهبت بعد ذلك إلى المنزل، وكتبت رسالةً وأرسلتها في اليوم التّالي إلى موظّف الجوب سنتر المسؤول عن ملفي:

«السّيد شنايدر المحترم، نودّ إبلاغكم أنّنا ذهبنا إلى مدرسة الحياة ولم نجد أحداً. أرجو قبول تسجيلي في أيّة مدرسةٍ تختارونها. مع الشّكر. ملاحظة: أودّ أن أعرف أكثر عن خدمات الدّعم النّفسيّ التي يمكنني الاستفادة منها».

كيف ساعدتني ألعاب الفيديو في المعاملات البيروقراطية الألمانيّة؟

كان والداي يتبرّمان كثيراً من إدماني على ألعاب الفيديو في صغري. في الحقيقة لم أكن أعرف كيف أرضيهما إذ كانا لا يستحسنان أيَّ شيء أفعله. على سبيل المثال قبل أن تدخل ألعاب الفيديو حياتنا، وعندما كان عمري سبع سنوات، كانا يشجعانني على فضيلة القراءة وأهميّتها في اكتساب المعرفة، فتحمّست للموضوع فعلاً وصرت أقف أمام مكتبة منزلنا الهائلة وأنا أتفرّج على ألوان الكتب وأشكالها حتّى عثرت على كتابٍ لفت نظري لون غلافه الأحمر اللامع. سحبت الكتاب وذهبت إلى السّرير لأقرأ فيه قليلاً قبل أن أنام. لم أكن بعد في عمرٍ واعٍ جنسيّاً ولكنّني شعرت أنّ هنالك أمراً غريباً في الكتاب إذ تضمّن قصصاً ماجنةً عن الخلفاء والجواري. على كلّ حال، استفدت من القراءة بمعرفة أسماءٍ فصيحةٍ لكامل أعضاء الجسم الحميمة المؤنثة والمذكرة وأهم ما قيل فيها من أشعار، وكذلك بمعرفة أنّ سعر الجارية يزداد إذا أتقنت فنّ إصدار الأصوات أثناء المضاجعة وكذلك اطّلعت على لمحةٍ عن معايير الجمال في ذلك الوقت كما جاءت بلسان شعرائه، ولو أنّ أساليب وصفهم كانت صفيقةً وغريبة قليلاً. اطّلعت أيضاً في الكتاب على حسّ الدّعابة الغريب لدى أجدادنا بشأن المواضيع الجنسيّة، إذ كان المثال عن النّكات المضحكة هو شيء مثل: رأى الخليفة جاريةً في السّوق فأعجبته، سألها: «هل أنت بِكر أم إيش» فقالت له: «أنا إيش يا أمير المؤمنين».

غفوتُ بعد هذه الجولة المعرفية ثم استفقت على صراخ أمّي في الصّباح التّالي عندما وجدتني نائمة والكتاب بين يدي. تبيّن أنّ الكتاب هو «تحفة العروس ومتعة النّفوس». لم أيأس من محاولة نهل العلم والمعرفة من الكتب، إذ بعد ذلك وقع اختياري على مجلدات «ألف ليلة وليلة» ذات الغلاف الأزرق الزاهي الجميل،

وبدأت أطالع القصص باهتمامٍ حتّى تمّ سحبه من يدي بدوره. كانت النّقطة الفاصلة ونهاية هذه المغامرات المعرفيّة حين كنت أطالع مُجلةً ثقافيّةً عربيّةً تضمّنت خبراً عن دعوى قضائيةٍ رفعها أهل طفلٍ ما على مايكل جاكسون غير أنّ السّبب بدا لي غامضاً. دون تردّد وبنهمٍ معرفيٍّ حملت المجلّة من غرفة المعيشة ولحقت بأمّي وهي تنظّف الأطباق في المطبخ وسألتها أن تشرح لي معنى: «تحرّش به جنسيّاً». بعد عودة والدي من العمل مساءً ناداني ليحدّثني بشأنٍ هامٍّ. قال لي بلطفٍ أن أتوقف عن قراءة أيّ شيءٍ خارج كتبي المدرسيّة وأنّها كافيةٌ تماماً. سألته عن السّبب ففكر قليلاً ثم قال أنّ السّبب هو كونه غير متأكّدٍ من سلامة اللّغة في هذه الكتب وأنّني يجب أن أؤسس قواعد اللّغة جيّداً في المدرسة قبل أن أتعرّض للغةٍ غير سليمةٍ. وافقت على ذلك وقد زاد فضولي طبعاً لسرقة المزيد من كتب المكتبة.

عندما دخلت ألعاب الفيديو إلى المنزل، لم يمانع والداي إمضاءنا أنا وأخي بعض الوقت للّعب بها، أوّلاً لأنّ اللّعبة الأولى التي حمّلناها على الجهاز «برنس أوف برشيا»، لم تكن مغريةً جدّاً لنمضي عليها الكثير من الوقت، مما أوهم والديّ أنّنا غير مؤهّلين جينيّاً للإدمان على ألعاب الفيديو - الأمر الّذي تبيّن أنّه خطأ كبيرٌ فيما بعد - وثانياً لقيامهما بوضع كلمة سرٍّ للكمبيوتر بقصد ضبط أوقات لعبنا عليه. سرعان ما انهار كلا السّببين، حيث اكتشفنا كلمة السّرّ والتي كانت اسم أخي الأصغر وهو أوّل احتمال جرّبته. أنا ابنةٌ وسطى، لم يكن أبواي ليضعا اسمي أنا طبعاً حتّى ككلمة سرٍّ للجهاز. ومن ثمّ حين بدأت أقراص الفلوبي المرنة تنقرض، ومع دخول نظام ويندوز حيّز الاستعمال، بعد أن كنّا سابقاً نضطر لتشغيل الألعاب من نظام الدّوس المعقّد، أقبلنا على الألعاب الجديدة بشغفٍ شديدٍ، لم يتمكّن أبواي من الوقوف في وجهه، فاستسلما آملين على الأقل أن نتعلّم اللّغة الإنجليزيّة بشكلٍ جيّدٍ من خلال هذه الألعاب. ذلك الرضا المؤقّت سرعان ما بدأ يتلاشى ليحلّ محلّه القلق، بخاصةٍ بعد أن نادى أخي الأصغر أبانا ليشاهد براعتنا، في الجزء السّادس من لعبة «ليجر سوت هاري»، بإزالة القطعة العلوية من لباس إحدى الفتيات. في الواقع، لم يكن أهلي مخطئين كثيراً. لقد علّمتنا هذه الألعاب اللّغة الإنجليزيّة بشكلٍ جيّدٍ، وكذلك الكثير من القيم الأخلاقيّة الحسنة. على سبيل المثال، علمتنا لعبة الـ«دوم» أنّ النّجاح غير ممكنٍ دون امتلاكك كلمات سرٍّ تساعدك على الغشّ في اللّعبة، وحتى عندها قد يكون النّجاح مستحيلاً. علّمتنا سلسلة «كينغز كويست» الارتياب في أيّ شيءٍ يبدو

جميلاً أو مفيداً، كما علّمتنا لعبة «برنس أوف برشيا» أن نعتاد على التّعامل مع الإحباط وعلى ترك مشاكلنا للحظّ وحده ليحلّها، أما لعبة «ليجر سوت هاري»، فقد علّمتنا... علّمتنا أموراً قيّمةً دون شكٍّ. حسناً ربّما لم نتعلّم منها شيئاً ولكنّها مسليّةٌ للغاية.

فيما بعد، اكتشفت أنّ تعلقي بهذه الألعاب في صغري قد شكّل لديّ ما يشبه مناعة ضدّ مصائب الحياة الواقعية ومقدرة على تحويلها إلى مغامرات. عندما زرت نيويورك للمرّة الأولى على سبيل المثال، كنت قد اتفقت مسبقاً مع معالجٍ بالإبر الصّينية على أن يسمح لي بالنوم في العيادة بعد إقفالها مقابل سعرٍ بخسٍ. وصلت إلى المدينة وكان هاتفي قد تعطّل وبطّارية اللابتوب قد فرغت ولم أستطع شحنه في أيّ مكان لاختلاف شكل المقابس الكهربائية، كما أنّ الورقة التي سجّلت عليها عنوان العيادة كانت قد اختفت. عندما اتّصلت بالرجل من هاتف فتاةٍ في الطريق أغلق الخطّ في وجهي فظننت أنّني تعرضت لعمليّة نصبٍ بعد أن كنت قد حولت له المبلغ مسبقاً. حين وصلت إلى العنوان بعد سلسلةٍ من المغامرات وتبيّن أن الرّجل صادقٌ وبانتظاري، لكنّه لا يتحدّث الإنجليزيّة ما دفعه لإغلاق الخطّ. أدركت أنّني لم أشعر بأية ذرةٍ من الهلع، السبب في ذلك أنّني تعاملت مع الموضوع كما لو أنّني ألعب لعبة نيويورك، مختارةً المرحلة متوسّطة الصّعوبة.

في تجربتي الأولى مع مشوار الأوراق والمعاملات في ألمانيا، أكسبني حسّ ألعاب الفيديو هذا مقاومةً كبيرةً لليأس. تعاملت مع الأوراق المطلوبة في كلّ مرحلةٍ من مراحل اللّجوء على أنها المهام التي عليّ تنفيذها قبل أن أختم المرحلة بنجاح.

أحياناً كان الأمر يبدو بالنّسبة لي كواحدةٍ من ألعاب المغامرة (آدفينتشر غيمز)، حيث على اللّاعب أن يجد مخرجاً مبتكراً ليحلّ اللّغز عبر الحديث إلى العديد من الأشخاص والبحث عن أشياء مساعدةٍ. كنت أحتاج لاستجماع كلّ خبراتي خصوصاً عند النّقطة التي تبدو مقفلةً تماماً، حيث يتوجّب عليك مثلاً جلب ورقةٍ تحتاج إلى وجود ورقةٍ ثانيةٍ، والورقة الثانية بدورها تتطلّب أن تكون الأولى موجودة معك. ما جعل الأمر في ألمانيا يبدو دائماً وكأنّي أضع اللّعبة على خيار «متوسطة الصّعوبة» هو عدم إتقاني للألمانيّة أصلاً. في كلّ الألعاب هنالك عوامل مساعدةٍ يجب أن تفطن إليها لتسهّل عليك التّقدم، مثل المربّعات التي

تتضمن الفطر أو الوردة في لعبة «سوبر ماريو»، والتي تجعلك أكبر حجماً أو تعطيك سلاحاً، أو مثل الآلات الكاتبة التي تجدها في أنحاء مختلفةٍ من المنزل في الأجزاء الأولى من لعبة «ريسيديتن إيفيل»، والتي تسمح لك بحفظ الرحلة التي وصلت إليها لئلّا ترجع إلى نقطة البداية كلما متّ. في حالة الأوراق الألمانيّة كانت عواملٌ مساعدةٌ كهذه هي الأصدقاء والصديقات من الألمان، الذين يتبرّعون بجزءٍ من وقتهم لمرافقة أناسٍ مثلي إلى الدّوائر الحكومية متكفّلين بمهمّة التّرجمة، وكذلك العثور على موظفين يتحدّثون الإنجليزيّة وهو ما يجعل المرء يحسّ بفرحةٍ شبيهةٍ بفرحة العثور على قاذف البازوكا في لعبة الـ«دوم»، أمّا مفاجأة الحظّ السّعيد القصوى هي عندما تعثر على موظّفٍ أو موظّفةٍ لا يتحدّثان الإنجليزية ولكنّهما يتمتّعان بما يكفي من المرح لمحاولة التّفاهم معك بلغة الإشارة.

حتى الآن نحن نتحدّث عن مراحل أوليّةٍ من اللّعبة، ولكنّ المرحلة الصعبة حقاً أو ما يسمّى بـ«مرحلة الوحش» كانت فترة التسجيل في الجوب سنتر ريثما أعثر على عملٍ، إذ اضطررت للذهاب عدّة مرّات بصحبة إحدى صديقاتي الألمانيّات، وفي كلّ مرةٍ كنّا نعود خائباتٍ لعدم استكمالنا الأوراق اللّازمة أو لأنّهم تذكّروا ورقةً جديدةً عليّ أن أجلبها. بدأت أستكمل كلّ الأوراق وأنا أشعر بالحماس لإنهاء هذه المهمّة، لم أعتمد هذه المرة على مساعدة أحد الأصدقاء بل استعنت بمترجمٍ محترفٍ يقضي كلّ نهاره في الذهاب لمختلف مكاتب الجوب سنتر ويعرف أدقّ التّفاصيل اللّازمة عن القوانين والأوراق المطلوبة. منذ اللحظات الأولى بدا المترجم خبيراً جدّاً، ولديه روحٌ قياديةٌ عاليةٌ. أخذ منّي ملف الأوراق وبدأ يرتبها بنفسه ومن ثم بدأت اللعبة، تكفّل هو بالحديث مع الموظفة وحتى بالإجابة بنفسه عن أسئلةٍ تخصّني دون أن يسألني أيّ شيءٍ، ثم انتهى الموضوع في دقائق وكنّا خارجين من المكتب، وأنا لا أصدّق عينيّ. اسم المترجم صالح، شكرا يا صالح إنك أهم من كلمة سرّ المزاج السّعيد في لعبة السيمز.

تواصـل اجتماعـي يـؤدي إلى الوحـدة

لاشكّ أنّ العولمة نصبت أفخاخاً كثيرةً للناس الساعين للتواصل مع الآخرين كيفما اتّفق. في أزمنةٍ ماضيةٍ، عندما كانت أحاديث كسر الجليد المثاليّة مع الغرباء تقتصر على الحديث عن حالة الطّقس أو التّعليق على الأحداث الهامّة في العالم والوصفات المنزليّة لعلاج الحروق والزّكام، كان النّاس يتواصلون مع بعضهم بشكلٍ أفضلَ. قد يكون السّبب في ذلك، أنّ أحاديث كهذه لا تتيح لك فرصة الانجراف دون قصدٍ إلى مكانٍ خاطئٍ يسمح بإهانة الشّخص الآخر القادم، أو إتاحة الفرصة له لمعرفة مدى سخافتك وسوء روح الدّعابة لديك. لم يكن رائجاً أن تتواصل مع أناسٍ من ثقافات أخرى بهذه الكثرة، وبالتالي لم تكن مضطراً لاستعراض المعلومات المعروفة عن هذا البلد أو ذاك، والتي تكون غالباً معارفَ سخيفةً ونمطيّةً.

هنالك ما هو أسوأ من ذلك، وهو أن تحاول إضفاء لمسةٍ من حسّ الدّعابة على هذه الكارثة كلّها. أنت في الأصل تبني آمالك على ممارسةٍ اجتماعيةٍ مقلقةٍ كما أنّك غير مدركٍ لما هو مضحكٌ ولطيفٌ في ثقافة من تحدّثه. على سبيل المثال، حاولت مرّة أن أتحدّث إلى زميلٍ كوريّ في مدرسة اللّغة، ، فقلت: «هل تعلم؟ من الجيّد أن كيم يونغ أون لا يهوى السينما كأبيه. لو كان كأبيه كنتم ستختطفون كثيراً إلى هنالك». وأردت بذلك إبراز خفّة ظلي وسعة اطلاعي بالإشارة إلى الحادثة الشهيرة التي قام فيها كيم يونغ الأب باختطاف مخرج وممثلة من كوريا الجنوبية لشدّة ولعه بالسينما.

لا أعرف الطريقة التي استخدمها زميلي للاختفاء. هل هي تقنيّةٌ من تقنيّات النّينجا أم هي إعادة تركيبٍ جزيّئيّ، حيث أنه اختفى من الغرفة بظرف أجزاءَ من

الثّانية، تاركاً إيّاي بحالة إحراجٍ شديدةٍ أواجه النّظراتِ المستغربة من الآخرين في الغرفة. بالمناسبة أنا سعيدةٌ لأنّنا نتحدّث في هذا الموضوع، إذ أودّ أن أقول كلمةً جديّةً للنّاس الذين يكرّرون دعابة «لا تقتلوا بعضكم البعض رجاءً»، كلّما اجتمعوا في مكانٍ واحدٍ مع أشخاصٍ عربٍ وإسرائيليين معاً. أرجوكم لا تكرّروا هذه النّكتة، فقد باتت قديمةً جدّاً وغير فعّالةٍ سوى في جعل جوّ الجلسة مكهرباً ومزعجاً.

الآن، إذا أردنا الحديث عن الموضوع فيما يخصّ ألمانيا، فهنالك الكثير لنقوله طبعاً. ربما يعرف الكثيرون الظاهرة الغريبة التي تحدث حين يحاول العرب والألمان التّواصل مع بعضهم للمرة الأولى. بشكلٍ أدقّ، ما هو الموضوع الذي يمكن للعربيّ أن يتحدّث عنه عندما يرى ألمانيّاً؟ هذا الكلام قديمٌ نسبياً، أي قبل أن تصبح ألمانيا الوطن الأمّ للكثير من العرب وقبل أن يتعرفوا عليها بشكلٍ أفضل.

بما أنّ هذه الجزئيّة محرجةٌ قليلاً، دعونا نمهّد لها بعض الشّيء. فلنقل بدايةً أنّ قسماً كبيراً من العرب الذين لم يتابعوا تطوّر الأحداث في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، كانوا يمتلكون فكرةً خاطئةً عن كيفية مجاملة الشّخص الألماني ومحاولة إشعاره بالألفة والمودة. ربّما توضّحَ في هذه النّقطة عمّ نتحدث بالضبط. نعم، إنّه مقصدٌ مرتبطٌ بذلك الرّجل الذي لا نحبّ ذكر اسمه، تعرف من... الرّجل ذو الشّارب الغريب والعلاقة المضطربة بالفنون. كلّا، ليس سلفادور دالي. قد لا يصدّق الكثيرون ذلك، ولكن منذ فترةٍ غير بعيدةٍ كان من الممكن جدّاً أن يقوم أحدٌ ما في البلاد العربيّة بالتّرحيب بسائح ألماني قائلاً: «ألمانيا؟ جوود جوود... هتلر سو جوود.. نايس مان». ليس بالضّرورة أن يتم تفسير الأمر على أنّ لهتلر ولذلك الشّخص المضياف... لنقل أعداءً مشتركين أو أيّ شيءٍ مشترك. كلّ ما في الأمر أنّ هذا الشخص يحاول استدعاء أقرب رمز ألمانيٍّ شهيرٍ إلى ذهنه، وبذلك هو يتعامل مع نسبة هتلر إلى ألمانيا كما لو أنه أهرامات الجيزة أو سور الصين العظيم بالنسبة لمصر وللصين، ظانّاً أنّه يمدّ جسور الألفة بينه وبين الشّخص الألماني. لك أن تتخيّل حالة الذّهول التّامة التي من الممكن أن يصاب بها السّائح في هذه الحالة، وهو غير قادرٍ على تحديد ما إذا كان هذا الكلام دعابةً أم حقيقةً أم تهديداً أم فنّاً معاصراً.

إن تقلّص هذه الظاهرة، لا يعني انعدامَ أشياءَ أخرى سيّئةٍ نستطيع ارتكابها حتّى اليوم في ألمانيا أثناء محاولتنا التّواصل الاجتماعي مع الألمان، وخصوصاً مع لمسةٍ مؤلمةٍ من كوميديا صراع الحضارات.

أتذكر مرة أنّني كنت في اجتماع عمل هنا، وتم اقتراح جلسة عشاءٍ تكون بمثابة عصفٍ ذهنيّ لتنفيذ المشروع الجديد. اقترحت المشاركة الألمانيّة أن يجلب كلُّ شخصٍ منّا إلى العشاء طبقاً تقليدياً من بلده وموسيقى أيضاً. قالت لي على سبيل الشرح أن أجلب طبخةً سوريةً وموسيقى من بلدي وهي بدورها تجلب كذلك طبقاً ألمانيّاً وموسيقى. وهنا تماماً ارتكبت الخطأ الذي سأدفع ثمنه غالياً أثناء عملي، وهو إلقاء دعابةٍ بقصد تلطيف الأجواء وخلق مساحةٍ من الأريحيّة في اجتماعات العمل. قلت لها: «أوك فهمت، أنا أجلب موسيقى سورية وأنت تجلبين رامشتاين».

حسناً، لنقل أنّها لم تعجب إعجاباً شديداً بهذه الطّرفة، وبدا لي أنّها غضبت قليلاً وقالت لي بنبرةٍ حادّةٍ مؤنّبة:

«الموسيقى الألمانيّة ليست رامشتاين»، قبل أن تذهب وهي متعضة. يبقى أن أقول أنّني لم أسمع أو أرى شيئاً منها بعد ذلك، ولا أعرف ما حلّ بالمشروع الذي كانوا يخططون له. على كلّ حال، أتمنى أن يكون على خير ما يرام.

مقترحـــــاتٌ لتطويـــــر مناهـــــج الاندمـــــاج واللّغـــــة الألمانيّـــــة

باتت حياتي أسهل بالطّبع بعد أن دخلت مدرسة تعليم اللّغة والاندماج، حيث أنّني صرت قادرة على التّفوّه ببعض الجمل البسيطة بالألمانيّة، رغم أنّ ذلك قد يكون سبباً في ارتفاع معدّلات الأمراض المزمنة لدى الباعة والعمال في المقاهي، بسبب إدماني على استخدامهم في ممارسة اللّغة والإصرار على الحديث إليهم بالألمانيّة المتكسّرة، وخصوصاً فقرة عد النّقود التي أحبّها كثيراً، فأصرّ على استمهال البائع وأنا أعدّ القطع النّقدية بالألمانيّة على مهل. مع ذلك، لدي اقتراحات مفيدة بشأن المناهج التّدريسية لجعل الفائدة منها أعمّ للمهاجرين.

مثلاً إضافة فصلٍ خاصٍ للتعامل مع مروّجي المخدرات. في برلين على وجه الخصوص تزداد الحاجة لفصلٍ كهذا. في ألمانيا كانت المرة الأولى التي يعرض أحدهم عليّ فيها المخدرات في الطريق. في الواقع، لم أعرف كيف أتعامل مع ذلك في المرّات الأولى. هل عليّ أن أهرب؟ أم أنّ هنالك كوداً خاصّاً يجب أن أتحدّث به، وهذا ما أفضّله. حقيقةً، المباشرة الشّديدة في العرض كانت تجعل الرغبة في التّجربة أقلّ. لو كان يقول شيئاً رمزياً لبدا الموضوع أكثر إغراءً، مثل: « لدينا الأخضر الجميل». ولكن هذا موضوعٌ آخرُ من الممكن التّحدث فيه مطوّلاً في فصل بعنوان «مقترحات لتطوير الخطة التّسويقيّة لمروّجي المخدّرات». لئلّا نخرج عن موضوعنا الحاليّ وهو المناهج، نعود للقول أنّ وجود جملٍ تعلّمنا كيف نقول للسيّد البائع: «لا شكراً، لا أريد مخدّرات»، أو «نعم، ضع لي خمس غرامات من فضلك»، أو ما شابه هو أمرٌ ضروريٌّ جدّاً في الكتب المدرسية.

مع التّقدير الكامل لترتيب الدّروس في شكلها الحالي، لكن هنالك أمران يؤرّقان اللاجئ الجديد لدى بدء مزاولة حياته في البلاد: الذهاب للدوائر الرسمية واستئجار منزل. لذلك حبّذا لو تبدأ المناهج بتمارينٍ مطوّلةٍ في هذين الموضوعين، يتمرّن فيها الطّالب على المحادثات في كلٍّ من دار البلدية ومركز العمل وكذلك على اللّقاءات مع أصحاب المنازل.

رغم لطف القصص المتضَمّنة في الكتاب، مثل قصّة «يان وسارة» الذين يكابدان الحبّ عن بعدٍ وما شابه، ولكنّها في الحقيقة غير جذّابةٍ بالنّسبة لعيوننا المعتادة على أنواعٍ أقوى من الدّراما والتلهّفة للقصص الشائقة. من المفيد أن يتم إدخال قصصٍ عن مكائد الحموات وحرب زوجات الأخوة. فلم لا نتعلّم قواعد الأزمنة المختلفة في اللغة مثلاً عن طريق قصّة السّيّدة شنايدر، والتي يتزوّج ابنها أوفه من الكنّة زابين التي تبدو صاحبة مشاكل وتنتقل للعيش معهم في المنزل، وتحاول أن توقع بين الابن وأمّه. فتذهب إلى السّحرة لتعمل حجاباتٍ للسّيّدة شنايدر، غير أن الأخيرة، بفطنتها وخبرتها الطويلة في الحياة، تكتشف مكان السّحر في النّباتات المنزلية، فتحبط محاولات زابين. ثم تقوم بمهام استراتيجيةٍ في الوقت نفسه، حيث تطلّق أوفه منها بأن تتحالف مع حبيبته السّابقة، الفتاة التّركية برجو، لتعيدها إليه. من المهمّ أيضاً الحرص على أن يرافق قصص الحبّ شيء من الخطورة التي تصل حد تهديد الحبيبين بالقتل من والد الحبيبة، فيضطران للالتقاء سريّاً في الظلام أو ما شابه ذلك، أو أن تكون هنالك قصص حبٍّ تربط بين فتاةٍ فقيرةٍ وشابٍّ غنيٍّ ترفض أسرته تزويجه منها، ليتبيّن في النهاية أنّها سليلة عائلة ثرية وسترث مبلغاً كبيراً من المال والخ.

من الجميل أيضاً أن يجد المرء قصصاً متنوّعة في الكتاب تشعره بالألفة، مثلاً قصّة أحمد الذي يعيش منذ ثلاثين سنةٍ في ألمانيا دون إقامةٍ ويعمل في سوقِ الحديد. مع قصةٍ كهذه، مفعمةٍ بالحيويّة، يمكننا أن نتعلّم قواعدَ صياغة الجمل الاستفهامية التي قد نحتاجها عن طريق مقابلة المحقق مع أحمد، الذي يتهرب من الضّرائب ويعمل بالأسود. كذلك قصّة جمانة الدعوّة مع أهلها إلى عرسٍ عائليٍّ، حيث تحوّل أمّها المناسبة إلى مهمةٍ عسكريةٍ لاصطياد عريسٍ محتملٍ لجمانة من بين أبناء القريبات المدعوّات للاحتفال، فنتعلّم في هذا الدّرس كيف يتمّ السّؤال عن أبناء المدعوّات الأخريات وعن أعمالهم، ومن ثم كيفية تقديم

جمانة إليهم ومديح مهاراتها المنزلية وحسن خلقها وتهذيبها. هذا في الواقع مدخلٌ هام لإثراء درس «العائلة» المتواجد في كل كتب تعليم اللغة والذي نتعلم فيه أسماء الأقارب.

يجب أن يضاف قسمٌ على دروس جمل الوداع، خاصٌّ بالوداع لمدّة ثلاث ساعات على بوابة المنزل، فقد لاحظت أمراً خطيراً لا يراعي خصوصيّتنا الثقافيّة، ويهدّد بتفكّك مجتمعيّ محيق، وهو أنّ جمل الوداع التي نتعلّمها مقتضبةٌ للغاية. ««أوف فيدرزيهين»[5] ، هل هذا كلُّ شيءٍ؟ هنالك حروبٌ عائليّةٌ قد تنشب وخطوباتٌ قد تعركس بسبب ذلك. من الضّروري أن يتم إفراد فصلٍ خاصٌّ يتضمّن حواراً مناسباً للوداع المطوّل عند باب المنزل.

5 "Auf Wiedersehen" عبارة ألمانية تعني «إلى اللقاء».

كيف فشلت في محاولة ابتكار بطل خارق ألماني؟

ولكن ما هي الحكمة في عدم وجود بطلٍ خارقٍ ألمانيٍ شهيرٍ حتّى الآن؟ أعني مثل البقيّة، سوبّرمان ومن هم مثله: رجلٌ ما يرتدي الملابس الدّاخلية فوق بنطالٍ ضيّقٍ وينطلق لمحاربة الشرّ.

هذه المهّمة لا يجب أن تتأخر أكثر، وقد تبرّعت لأدائها بنفسي. قالوا لي بشفقة أن أذهب وأجرّب كتابة المغامرة الأولى، ولكن عليّ الحذر من الإحباط لأنّ «نمط الحياة هنا» قد يعرقل مسار الأحداث قليلاً.

ماذا يعني ذلك أصلاً؟ للأبطال الخارقين نمط حياةٍ واحد، وهو إنقاذ الأبرياء، ولا يجب أن يوقفهم شيءٌ عن ذلك. خلق الشّخصية لم يكن صعباً، سرعان ما انتهيت من رسم سكيتشٍ أوّليٍّ للبطل بذقنٍ عريضةٍ مثالية. أطلقت عليه اسم «يان» كونه أول اسمٍ ألمانيٍّ حفظته. الآن حان الوقت للتوجّه نحو المهمّة الأولى.

عصابةٌ من الأشقياء يخطفون حقيبة إحدى السّيّدات على الرصيف المقابل. يان وقف بعنادٍ رافضاً أن يتحرّك باتّجاه الحدث، اكتفى بأن نظر إليّ باحتقار، وأومأ نحو الإشارة الضوئية للمشاة منبهاً إيّاي إلى كونها حمراء. هل يعقل أن يقف هنا منتظراً أن تفتح الإشارة؟

لقد تمكّنت العصابة من خطف حقيبة السّيدة، وأحدهم قام بنبش أحمر الشّفاه منها ولوّن شفتيه به وأخرج الأقراط ووضعها في أذنيّه ليأخذ سيلفي،

بينما تبكي السّيدة الملقاة على الأرض. لم يجب يان بأيّ شيءٍ بل اكتفى بعقد يديه بحزمٍ رافضاً إبداء أيّ تعليقٍ حتّى صارت الإشارة خضراء. ولكنّ الأشقياء كانوا قد هربوا. لم يعد هنالك الكثير ممّا يمكن عمله، إلّا أن يقوم يان بمساعدة السّيّدة على النّهوض ومرافقتها إلى مركز الشّرطة.

«لا أحد يبدأ عظيماً»، عندما رجع يان خائباً من المغامرة الفاشلة حاولت أن أكتب هذه العبارة على إحدى فقاعات الكلام في الصّورة، كي أرفع معنويّاته، ولكنّه نفخ الفقاعة بعيداً. الحلّ هو في مغامرةٍ ناجحةٍ أثبت له من خلالها أنّه خلق من أجل هذا الدّور حتّى يتحمّس أكثر. بسرعةٍ رسمت مربّعاً يتضمّن صالة خدماتٍ في بنك، وأضفت لصّاً مقنّعاً يهدد موظفة البنك بمسدس. من حسن الحظّ، لم تكن هنالك إشارةٌ ضوئيةٌ تقف في طريق يان هذه المرّة، لأنه كان أمام ممرٍّ مفتوحٍ للمشاة، ولم يكن ثمّة من شيء يمنعه من أن ينطلق كالصّقر نحو البنك ليوقف السّرقة. حبست أنفاسي مترقّبة ما سيحدث بحماسٍ وأنا أتابع اقتحام يان أخيراً لمبنى البنك وإمساكه اللصَّ بقوّةٍ من ياقته. قطع المشهد فجأةً دخول موظّفةٍ تحمل في يدها مجموعةً من الأوراق وقلماً. توجّهت بالحديث إلى يان:

عذراً، حضرتك على ما أظنّ السّيّد المكلّف بإنقاذ البنك من عمليّة السّرقة، أليس كذلك؟

نعم أنا هو.

هل تحمل تصريحاً يخوّلك حماية البنك؟

-لا، ما هذا أصلاً؟

لا مشكلة، سيكون عليّ أن آخذ منك بعض المعلومات بشكلٍ سريعٍ ومن ثمّ سأدعك تعود لمهمّتك.

بالطّبع.

هل لك أن تملأ الخانات في هذه الورقة من فضلك؟ الاسم الأوّل، اسم العائلة، العنوان والرمز البريديّ.

علّق يان اللّصّ على أحد المشاجب الموجودة في الغرفة، ودوّن المعلومات في الورقة ثم أعادها إلى الموظّفة وهمّ بالعودة لالتقاط اللصّ مجدداً عن المشجب.

عفواً، هل لي أن أعمل نسخةً من الأنملدونغ[6] التي تخصّك؟

أخرج يان من جيب بزّته الورقة وأعطاها للموظّفة، التي غابت لدقائق ثمّ عادت بعد أن قامت بنسخ الورقة.

شكراً جزيلاً، هاك الورقة. بقي أمرٌ آخرُ، وهو أن أسجّل الرقم الضريبيّ ورقم التّقاعد الذي تملكه، وعندها تستطيع أن تذهب وتمارس مهمتك دون عائق.

أخرج يان الأوراق المطلوبة، وريثما كانت الموظّفة منهمكةً بتدوين المعلومات في ورقةٍ لديها، خطف نظرةً إلى مكان المشجب، الذي أصبح فارغاً.

عادت إليه الموظّفة في هذه الأثناء وهي تعطيه ورقةً مختومةً: شكراً لتعاونك معنا سيّد يان، هذا تصريحٌ مختومٌ من البنك يفيد بأنّ لك كامل الحرّيّة في إنقاذ البنك من السّرقة كما تشاء.

قبل أن تغادر، التفتت إليه مبتسمةً: لقد قمت بالتوسط لك لتحصل على تصريحٍ جيّدٍ، فقد كانت الورقة الأساسية تفيد بأنك مُخوّل أن تنقذ الفرع الرئيسيّ فقط، ولمدّةٍ تنتهي بعد ثلاثة أشهر، ولكنّي ضغطت عليهم ليجعلوا التّصريح سارياً في كافّة الفروع ولمدّةٍ تصل إلى ستّة أشهر، وسيتمُّ إغراق صندوقك البريديّ... أقصد ستحصل على فرصة متابعة عروضنا ونشاطاتنا عبر الرسائل التي سنرسلها إلى عنوانك.

6 الـAnmeldung ورقة لتسجيل السكن في ألمانيا.

لم يستجب يان لأيٍّ من محاولاتي للتواصل معه بعدها، وهو يمشي بحنقٍ واضعاً يديه في جيوب بدلته. كان من الواضح أنّ الموضوع قد انتهى، وأنّه لا يريد المشاركة في هذا المشروع بعد اليوم. استمرّ بالمشي حتّى وصل إلى المحطة التي سيستقلّ منها الميترو عائداً إلى منزله. فكّرت أنّ هذه هي المرة الأخيرة التي سأراه فيها على ما يبدو. وقبل أن أستسلم لهذا الأمر بقليلٍ، لمعت في ذهني فكرة محاولةٍ أخيرةٍ لأنقذ مشروعي. أمام باب الميترو وضعت ثلاثة شبانٍ أشرار سارعوا إلى خطف قطعة حلوى من يد طفلٍ صغير.

بدأ الطفل يبكي بينما كانت العصابة تهرب بقطعة الحلوى. هذا نداءٌ لن يتمكّن يان من مقاومته. قضيّةٌ عادلةٌ جدّاً كما أنّه لا وجود لشيءٍ يحرّك مشاعر المرء مثل براءة الطّفولة. فعلاً تحمّس يان وبدأ بالرّكض نحو العصابة، ولكن ما الّذي يحدث؟ العصابة قفزت بالفعل إلى داخل عربة الميترو الذي يوشك على الانطلاق! كان يان في هذه اللحظات يحاول متوتراً أن يضع النّقود المعدنيّة في آلة قطع التّذاكر. لم أحسب لذلك أيّ حساب، بالطّبع لن يرضى يان أن يلاحق الأشرار داخل عربة الميترو بشكلٍ غير قانونيّ. بينما كان قد انتهى من استخراج البطاقة من الآلة وختمها كان الميترو قد مضى محمّلاً بالعصابة تاركاً يان ممسكاً بتذكرته حائراً وهو يلاحق الميترو بعينيه، وصوت بكاء الطّفل مستمرٌّ في الخلفية.

أغلقت دفتر الرّسومات عند هذه النّقطة، وجلست محبطةً في غرفة الجلوس وأنا أدخّن. لاحظت فجأةً أنّ سحب الدّخان تتكثّف لتجتمع في الغرفة. قلت لنفسي مجدّداً أنّني يجب أن أقلع عن التّدخين أو أخفّف منه، ولكن فجأةً خرج من بين سحب الدّخان المتجمّعة شخصٌ أعرفه جيّداً، شخصٌ لطالما تابعت مغامراته، ولم أصدّق أنّه يقف أمامي الآن وهو يسعل بقوّة من كثرة الدّخان. سقطت سيجارتي من فمي من فرط الدّهشة وأنا أحملق فيه.

يا إلهي! سوبرمان! هل أتيت إليّ كوحيٍ كما يحدث مع رسّامي الكوميكس العباقرة عندما يواجهون مشكلة؟

في الحقيقة لا، أنا سومرمان النسخة الآسيوية المقلّدة بشكلٍ سيء عن سوبرمان. شبحي كان ماراً بالصّدفة وتأذّى كثيراً من الدّخان الصّادر من هنا، فجئت لإطفاء الحريق وإنقاذ الأبرياء، أين الحريق؟

لا يوجد حريقٌ سومرمان، كنت أدخّن هنا فقط.

آه، أرى ذلك قال بدهشةٍ وقرفٍ ربما يجب أن تقلعي عن التّدخين. هل قلت أنّك ترسمين الكوميكس وأنّك تواجهين مشكلة؟

نعم سومرمان.

أرجوكِ، لا داعي للرسميات، ناديني مان فقط بلا سومر.

حسناً مان، المشكلة أنّني كنت أحاول رسم بطلٍ خارقٍ، ولكنّ مشكلةً ما كانت تمنعه دائماً من التّدخّل لإنقاذ الأبرياء.

ما الذي يمكن له أن يوقف بطلاً خارقاً عن مهامه؟ يبدو أنّك أسأت اختيار البطل. يجب أن يكون للبطل الخارق الظلّل بنجمات الولايات المطلّة من العلم الوطنيّ إرادةٌ لا تتوقّف حين يريد إنقاذ أهل بلده.

مان، أيّة نجوم؟ يبدو أنّك مشيت كثيراً بعد آخرِ مرّةٍ نظرت فيها إلى اللّافتات الحدودية.

ماذا؟ هل وصلت إلى المكسيك؟ سأل برعب.

لا يا مان، ولكنّنا الآن موجودون في ألمانيا.

آه، ألمانيا. ولكن ما دخل ذلك بـ...؟ آه آه الآن فهمت المشكلة. للأسف لا أستطيع المساعدة في هذه الحالة، ولكن أريد أن أقول لك شيّئاً أخيراً قبل أن أرحل. لا تتركي بطلك وحيداً، اصنعي له من أصغر التّفاصيل المتاحة مساحةً يتمكّن فيها من فعل الخير للنّاس فهو يتوق لفعل ذلك.

في هذه اللّحظة كان شخصٌ آخرُ قد خرج من بين سحب الدّخان، يرتدي نظاراتٍ طبيةً بإطارٍ عظميٍّ أسود وتي شيرتاً ملوناً.

تعبت كثيراً وأنا أبحث عنك؟ ما شاء اللّه! هل عدت للظّهور للناس مرّةً أخرى للتّظاهر بقول أشياءَ حكيمةٍ على أنّك وحي أو مدعياً أنّك سوبرمان الحقيقي؟ هل تظنّ أنّ أحداً سيأخذك على محمل الجدّ، وأنت تتجوّل مرتدياً هذا الكيلوت الأحمر؟ عد إلى الاستديو بسرعةٍ، علينا أن نطبع المغامرة الجديدة قبل فجر الغد.

بعد أن غادر سوبّرمان مع صديقه المخرج عبر الدّخان، ظلّت كلماته الأخيرة ترنّ في رأسي. أسرعت إلى دفتر الرّسومات وبدأت أعمل بحماسٍ حتّى انتصف اللّيل وتمكّنت من الذهاب للنومِ بضميرٍ مرتاحٍ. فيما بعد لم تنل مغامرات يان عندما نشرتها شعبيّةً ولم يتحمّس أحدٌ لشرائها، لا أعلم ما هو السّبب رغم أنّني حاولت جعل مغامراته مثيرةً قدر إمكاناته وهو يقوم بدور المنقذ في حمامات سباحة الأطفال وينزّه كلاب جيرانه العجائز.

© تجمّع ١١/١٠، بيروت + برلين ٢٠١٦
www.teneleven.org
الطابعة الأولى ٢٠١٦
جميع الحقوق محفوظة

HEINRICH BÖLL STIFTUNG MIDDLE EAST

تم إنجاز هذا الكتاب بالتعاون مع منظمة هاينرش بول. المنظمة غير مسؤولة عن المحتوى.
This publication has been produced with the financial assistance of the Heinrich Böll Stiftung - Middle East Office. The views expressed herein are those of the author(s) and cannot be taken to reflect the opinion of the Foundation

الشكر لعمّار عيروطة على الدعم
والمساعدة في انجاز الكتاب.

تصميم : كلارا سانتشو وباسكال زغبي
الخطّوط : 29LT Zarid & 29LT Baseet

ISBN .....

حسناً، الأمر ليس أنّ روايتك سيّئة، وأرجو ألّا تأخذي الأمر بشكلٍ شخصيٍّ. أنا آسفٌ جدّاً ولكنّني لا أستطيع نشر شيءٍ كهذا.

ولكن، ما المشكلة فيها؟ هل أستطيع على الأقلّ أن أحصل على رأيٍ لأتمكّن من تحريرها مجدداً؟ لقد قضيت أربع سنواتٍ وأنا أعمل عليها.

لا أظن أنّ ذلك ممكنٌ، أعتذر. لا تشعري بالإحباط فهذا مجرّد رأيٍ. ولكن في الواقع لو قمت بغمس مؤخّرتي في محبرةٍ، ومن ثم جلست على كومة أوراقٍ فارغةٍ، لنتج عملٌ أدبيٌّ أكثر جدارةً من هذه الرّواية. لا يعني ذلك بالضرورة أنّك يجب أن تبحثي عن مهنةٍ أخرى مثل التقاط أوراق الأشجار أو التصوير الفوتوجرافي، ولكن هو فقط مجرّد رأيٍ.

«كل العبث الذي تصادمت معه، رشا عباس تمكّنت من تحويله إلى عبثٍ أكبر. الكوميديا كاستراتجية للنجاة.»
جريدة دير تاغسشبيغل

«كوميديا ناجحة، إحدى القصص تجعل المرء يدمع من الضحك.» جريدة دير فرايتاغ

«رشا عباس تستكشف صعوبات قواعد اللغة الألمانية بشكل ممتع جدا.» جريدة زوددويتشه تسايتونغ